وزارة المعارف العمومية

كتاب الدين الإسلامي

تأليف

المرحوم الشيخ حسن منصور و الشيخ عبد الوهاب خير الدين و الشيخ مصطفى عنانى
وكيل مدرسة دار العلوم سابقا | المدرس بمدرسة دار العلوم | المفتش الأول للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

الجزء الأول

مقرر السنة الأولى الثانوية

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

وزارة المعارف العمومية

كتاب الدين الإسلامي

تأليف

المرحوم الشيخ حسن منصور و الشيخ عبد الوهاب خير الدين و الشيخ مصطفى عنانى

المفتش الأوّل للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية | المدرّس بمدرسة دار العلوم | وكيل مدرسة دار العلوم سابقا

الجزء الأوّل

مقرر السنة الأولى الثانوية

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين، وعلى جميع
إخوانه النبيين، وآلهم وصحبهم أجمعين .

أما بعد ، فقد مضى زمن طويل كانت فيه دراسة الدين
مقصورة فى التعليم العام على المدارس الأوّلية والابتدائية ؛ ثم
نهضت وزارة المعارف نهضة موفقة ، فقررت دراسته فى المدارس
الثانوية ؛ ووضعت لذلك منهجا حافلا بالموضوعات القيمة النافعة
التى تبين فضل الدين الاسلامى وسماحته وتيسيره . ولا سيما
تلك الموضوعات التى يكثر فيها الجدل اليوم .

ولما كانت تلك المباحث مفرّقة فى مثانى الكتب . وكثير
منها غير مهذب ولا قريب من متناول التلاميذ، توجهت أنفسنا

الى أن نقوم بجمعها وتهذيبها ، ووضعها فى أسلوب يُجلّيها ، ويقرّبها من أفهامهم ، فألفنا هذا الكتاب وسميناه :

"كتاب الدين الإسلامى"

وجعلناه جزأين : أولها لتلاميذ السنة الأولى الثانوية . والثانى للثانية .

وشرحنا فى كل جزء كثيرا من آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ؛ ليحفظ منها التلميذ ماقرر عليه حفظه بعد أن يفهم معناه .

وقد اختارت وزارة المعارف كتابنا هذا فقررت تدريسه لتلاميذ هاتين السنتين .

والله تعالى نسأل : أن ينفع به قارئيه ، وأن يوفقنا للعمل بأوامر دينه السمح الحنيف ؛ إنه سميع مجيب .

مقدّمة الطبعة المعدّلة

عدّلت وزارة المعـارف العمومية فيما عدّلت منهج الدين في المدارس الثانوية، وطلبت إلينا أن نساير هذا التعديل في كتاب الدين الاسلامي المقرّر في هذه المدارس، فأضفنا الى جزأيه تفسير آيات وشرح أحاديث اشتمل المنهج عليها، والى جزئه الثاني موضوعين زيدا على مقرر السنة الثانية، وهما :

(١) المنافسة في الزعامة بين مكة والمدينة .

(٢) الأسباب العمرانية للهجرة النبوية .

وقد رأت الوزارة إبقاء موضوعات في الكتاب زائدة على المنهج لما فيها من الفائدة .

والله تعالى المسئول أن ينفع به إنه سميع الدعاء

مصطفى عناني   عبد الوهاب خير الدين

الدين الإسلامى

تعريف الدين الإسلامى

الدين الإسلامىّ : هو الدين الحق الخالد ، الملائم للعقول ، فى كل عصر وجيل ، وشعب وقبيل . جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليُخرجَ الناس من الظلمات الى النور ؛ وليهديهم الى صراط العزيز الحميد : «صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ»[1] ؛ وليرشدهم الى ما فيه سعادتُهم فى دنياهم وأُخراهم .

ولهذا الدينِ خصائصُ ومزايا ، نذكر لك أقربها فهما ، وأسهلها تناولا ، وأعمها فائدة .

الخاصة الأولى

احترام الدين للعقل

احترامُ العقل ، والاعتماد عليه فى تعرُّف وجود الله وتوحيده .

دعا الإسلام النـاس الى الاعتراف بوجود الله ، والإقرار بوحدانيته ، وعوّل فى هذه الدعوةِ العظمى على العقول فأيقظها من رقدتها بعـد أن طالت ، وحثها على تأدية وظيفتها وقد نُسيت ،

(١) ٥٣ — ٤٢ الشورى .

ملاحظة — العدد الأول للآية . والثانى للسورة .

وأرشدها الى استعمال القياس الصحيح، والنظرِ فى الكون الفسيح، والرجوع الى ماحواه من نظام دقيق، وترتيب بديع، وصنع عجيب، وارتباطِ أسباب بمسببات . وكثيرا ما يرشد هذا الدينُ العقول الى ما هو أدق من ذلك مسلكا، وأوعرُ طريقا، فيدعوها الى التفكير فى خلق الأرض والسموات، والى النظر فى نظام الكون كلّه، وما فيه من عِبَر وآيات ؛ ليحرّضها على البحث عن أصول الموجودات وأطوارها، وتعرّف مبادئها ونظامها . قال تعالى : «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»(١) . وقال تعالى : «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»(٢) . وقال تعالى : «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(٣) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ»(٤) .

(١) ٢٢ — ٢١ الأنبياء . (٢) ١٦٤ — ٢ البقرة .

(٣) كانتا ملتحمتين ففصلناهما . ولما فى تركيب الماء من عناصر الحياة خلق الله تعالى منه كل شىء حىّ . (٤) ٣٠ — ٢١ الأنبياء .

كان كل ذلك لتصل العقول من ذلك الطريق : طريق الفطرة ، دونَ إكراه ولا إجبار، ولا قَسْر ولا إلجـاء ، الى أن لهذا الكون البديع موجدا واجبَ الوجود، واحدا لوَحدة نظام ذلك الكون، حيا قادرا حكيما عليما، متصفا بصفات الكمال؛ وحينئذ تخضَع بحق لسلطانه، وتَدين بلا ريب لأحكامه .

على أن هذا الدين لم يقف بالعقول عند هذا الحدّ من الحَفاوة بها، والتفخيم لشأنها، بل حباها بما هو أسمى قدرا، وأعلى ذكرا : ذلك أن جعل التفكير فى الكائنات، عبادةً من أشرف العبادات . قال تعـالى : « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »[1] .

الحث على تعـليم العلوم الكونية

ولا ريب أن فى ذلك حثا على اسـتعمال العقل فى النظر فى المخلوقات ، والتغلغل فى معرفتها، وإغراءً بالاطـلاع على كل ما يوصل الى معرفة حِكَم الله فى خلقه، وإدراك البديع من صنعه : كعلم النفس، والطبيعة، والكيمياء، والتشريح، والطب، والنجوم،

(١) ١٩١ – ٣ آل عمران .

وأشباه ذلك مما يجعل المرء متعلما متعبدا ، وأنه كلما أحاط بهذه الموضوعات علما، ازداد من ربه قربا .

تقريع القرآن لمن لم يستعمل عقله

ارجع الى القرآن الكريم تجده قد احترم العقول وأكثر من مخاطبتها، والحث على استعمالها ، وجعلها مناط التكليف، ومحط الثواب والعقاب ، وبالغ فى تقريع أولئك الذين لم يفكوها من أغلالها ، ولم يطلقوها من قيودها ، ولم يفسحوا المجال لاستعمالها ، بل تركوها مهملة معطلة ، واتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم الأقدمين، وأممهم السابقين. قال تعالى : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»(1) . وقال تعالى : «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»(2) .

وقال تعالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»(3) .

(1) ٢٤ — ٤٧ سورة محمد . (2) ١٠٥ — ١٢ سورة يوسف .
(3) ١٧٠ — ٢ البقرة .

الخـاصة الثـانية

المساواةُ بين الناس فى التكاليف والأحكام

حثّت جميع الأديان على الإخاء والمساواة ، واختص الدينُ الاسلامىّ منها بالقسم الأكبر ، والحظ الأوفر ، ولم يكتف ذلك الدين بالارشادات القولية ، والأقْيِسة العقلية ، بل كان يأخذ أتباعه بذلك عملا كلما حدثت حادثة ، أو نزلت نازلة .

آنظر كيف آخى الرسول الكريم بين المهاجرين والأنصار ، وكيف كان الأنصارىّ يؤثر على نفسه ويرضى أن يخرج عن نصف ما يملك لأخيه المهاجر وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس .

وانظر موقفه عليه الصلاة والسلام يوم خطبة الوَداع ، لترى العدل مجسما والمساواة ماثلة ، فقد قال : «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا فَهَـذَا مَالِى فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ ، وَمَنْ ضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً فَلْيَقْتَصَّ مِنِّى قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

وتدبر قول الله الكريم «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» (١) . وقوله جل شأنه : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (٢) .

(١) ١٩٥ — ٣ آل عمران . (٢) ٤٠ — ٤٢ الشورى .

وقوله تعالى : «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»(١) . وقوله عليه الصلاة والسلام : « النَّاسُ كُلُّهُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»(٢) .

لعلك قد فهمت من هذا أن الدين الاسلامى لا يفرق فى الحقوق والواجبات بين الملك والسُّوقة ، والعظيم والحقير، والغنى والفقير، والرجل والمرأة ، والعالم والجاهل، والنابه والخامل، بل كلهم فى شريعة الاسلام سواء : يُسألون عما جنته أيديهم، واقترفته نفوسهم، ويحاسَبون على أعمالهم : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ »(٣) .

الحكام وطاعتهم

ولضمان هذه المساواة والوصول الى تنفيذها، على وجه أكمل، ونظام أدق ، أمرنا جل شأنه : (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أن نُقيمَ من بيننا حكاما يكونون قُوّاما وحُرّاسا، يأخذون من القوى للضعيف، ومن الظالم للظلوم، وينظرون فى مصالح الأمة، وأمورها العامة، وأحوالها الهامة، منتهجين فى ذلك شرع الله الذى شرعه، واقفين

(١) ١٣ — ٤٩ الحجرات . (٢) شذرة من خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . (٣) ٧ و ٨ — ٩٩ الزلزال .

عند حدوده التى حدّها ، وواجب علينا طاعتُهم ،والخضوعُ لأمرهم ماداموا مهتدين بهَدْى الدين والملة ، مُقتفين أَثَرَ الكتاب والسنة ، دائبين فى عملهم على مصلحة الأمة .

الخاصة الثالثــــة

تقرير الســـــلام بين النــاس

لا شك أن الدين الاسلامى يعتمــد فى جميع تعاليمه على نشر ألوية السلام ، بين كافة الأنام .

وإنك لترى ذلك واضحا فى آيات القــرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الأمين ، وآثار السلَف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

انظر الى الأمم التى دانت للاسلام واهتدت بهديه ، وسارت وَفق أمره ونهيــه ، يأخذْك العَجَب ، ويستول عليك الدهشَ من تغير أخلاقهم وعاداتهم وطباعهم فى زمن يسير ، وأمد قصير .

حال العرب قبل الاسلام

ان كنت تجهل حال العرب قبــل الاسلام فاسأل التــاريخ ينبئك ، أنهم كانوا فى قتال دائم ، ونزاع مستحكِم ، وسلب ونهب ، وتحاسد وتباغض ، وتقاتل وتناحُر ، حروبهم لا تخبو نارها ، ولا يهدأ

سعيرها ، تأكل الرجال ، وتُئيم النسـاء[١]، وتُيَتم الأطفال، وربمـا عركتهم[٢] رحاها عشرات الأعوام، تطحنهم طحنا ، وتمزقهم إرْباً إرْبا ، وخطباؤهم وشـعراؤهم يستحثون العـزائم ، ويسـتفزون العواطف ، ويشجعون الجبـان ، ويحضون على الطعن والنزال ، وحرب البسوس[٣] وداحس والغبراء[٤] من شواهد ذلك .

حال العرب بعد الاسلام

وان كنت لاتعرف حالهم بعد الاسلام فاستفت التاريخ أيضا يُفْتك ، أنهم أصبحوا فى اتحاد وائتلاف ، ومحبة ووفاق ، وإخاء ومساواة ، وسلام وأمان ، وعلم وحلم ، وطهـارة وإخلاص ، بل أصبحوا كما قال الله تعالى : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ[٥] » . « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ[٦] » ولا شـك أن الله جلت حكمته ، قد جمع هـذه القبائل المتدابرة ، والقلوب النافرة ، والنفوس الجامحة ، بما أُودِعه هذا الدينُ من حب الخير للناس ، والابتعاد عن أذاهم ، والعفو عن سيئاتهم ، والسعى

(١) تجعلهن أيامَى لا أزواج لهن . (٢) دعكتهم وضغطتهم .
(٣) هى خالة جساس بن مرة هاجت بسـببها حرب بين بكر وتغلب .
(٤) فَرسان لقيس بن زهير العبسى قامت الحـرب بسببها بين عبس وذبيان .
(٥) ٢٩ — ٤٨ الفتح . (٦) ٦٣ — ٨ الأنفال .

الى مرضاتهم ، والحث على الاتحـاد والائتلاف ، والتنفـير من الشقاق والخلاف ، الى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والشمائل الظاهرة . قال تعالى : «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» (١) .
وقال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » (٢) .

هذا حال الدين الاسلامى مع أهله .

حال الاسـلام مع غير أهله

أما حاله مع غيرهم من الأمم الأخرى ، فقد كان رسولَ سلام اليهم أيضا : يسير بأهله نحوهم ليخطبوا مودّتهم ، و يطلبوا محبتهم ، و يجتهدوا فى توطيد العلائق بهم ، ووصلِ حبالهم بحبالهم .

وهاك مُثُلا من ذلك :

حرية المـرأة فى العقيدة

(١) أباح الاسلام للسلم أن يتزوّج الكتابية ، وخلّى بينها و بين عقيدتها ، والقيامِ بأعباء عبادتها ، والذهاب الى بيعتها أو كنيستها ، وأمر زوجها القـائمَ بالانفاق عليها ألّا يصادرها فى شىء من أمور دينها وأعمال نُسُكها . ولم يفرق الاسلام فى الحقوق الزوجية بين المسلمة والكتابية .

---

(١) ٤٦ — ٨ الأنفال . (٢) ١٠ — ٤٩ الحجرات .

آثار المصاهرة

على أنك تعلم ما تستدعيه المصاهرة وتَشابُك الأنساب من الصِّلات الحسية والمعنوية ، ولا يقتصر ذلك على الزوجين ، بل يتعدّاهما الى كل من يتصل بهما من ذوى قرابتهما ، فترى بينهم من أنواع المساعدة، وضروب المعاونة ، ما قد يدعو الى أن يقف كل منهم فى صف صاحبه، يناضل عنه بلسانه وسنانه .

الجزية وسببها

(٢) يكتفى الاسلام من البلاد غير الاسلامية التى رضيت بحكمه ، ودانت لطاعته، أن يُكلف أهلَها شيئا من المال يدفعونه ليحافظ على أمنهم فى ديارهم ، ويسعى فى حفظهم من عدوّهم ، ثم يتركهم بعد ذلك أحرارا فى عقائدهم ، ومعابدهم ، وعاداتهم ، لا يُضامون فى معاملة ، ولا يُسخَّرون فى عمل ، وجاءت السنة المستفيضة بالنهى عن إيذائهم ، وتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ آذَى ذِمِّيًا فَأَنَا خَصْمُهُ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] .

وصاة الخلفاء قوادهم باحترام العباد وغيرهم

وكان خلفاء المسلمين يُوصُون عمالهم وقوّادهم باحترام العُبّاد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار للعبادة فحسبُ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال من أعدائهم[2] .

(١) رواه الخطيب عن ابن مسعود . الجامع الصغير .
(٢) راجع وصية أبى بكر لقواده .

حث المسلمين على صلة أرحامهم من غير المؤمنين

(٣) يأمر الاسـلام الأولاد المؤمنين ألّا يقطعوا صلتهـم بآبائهم غير المسلمين وألا يتركوا مساعدتهم . بل يعاملوهم بالمعروف، وأن يجمعوا الى الاحتفاظ بدينهـم حسنَ معاملتهم ومساعدتهـم . قال تعالى : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(١) .

طبيعـة الدين الاسلامى

من هنا تفهم « أَن طبيعة الدين الإسلامى أن يَكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم، وأن يُجير من لا يعتقد عقيدته، ويحمى من لا يتبع سنته، اذا استجار بأهله ودخل فى ذمتهـم ، وان كان فى عمى من الجهالة وخبَل من الضـلالة » ولعل هـذا هو نهاية ما عرف من التسامح فى تاريخ الأديان لتقرير السلام، بين كافّة الأنام .

الخاصة الرابعـة

الجمع بين مصالح الدنيـا والآخرة

خلق الله الانسان حيوانا ناطقـا ، ولم يجعـله جُسمانيا صِرفا ولا مَلَكيا بَحتا، وجعل لجسمه مطالبَ لا بد لبقائه منها، ولا غنًى

(١) ١٥ — ٣١ سورة لقمان .

له عنها، ولروحه رغائبَ تصل به الى رقيّه وسعادته، وما أعدّه الله له من النعيم المقيم والسعادة الخالدة .

فأباح له التمتع بما يُنَمّى جسمه، ويُربّى روحه؛ ليحيا حياة طيبة، ويعيشَ عيشة هنيئة، ويصل الى ما هُيِّئ له من الكمال، وبث فى نفسه حب التسابق والتنافس مع غيره من بنى جنسه للحصول على تلك الأغراض والمقاصد، وجعل من طبيعته الانسانية ألّا يقف عند حدّ، أو ينتهىَ الى غاية .

وسخّر له ما فى الأرض والسموات جميعا، ووهبه عقلا يُمْكنه به أن يستخدم من ذلك ما يشاء .

عناية الله بالانسان

ثم أراد جل شأنه : بعد ذلك ألّا يترك الانسان أسيرَ شهواته، وعبدَ أطماعه، فرسم له فى التمتع بما يريد حدودا لا يتعدّاها، ورسوما لا يتخطاها : أحل له التمتعَ بما يعود عليه بالمنفعة حسا ومعنى من غير غُلُوّ ولا إسراف، وحظَر عليه اقترافَ ما يؤدّى الى ضرر فى جسمه أو روحه، أو يكونُ فيه أذى لبنى جنسه .

وأباح له التجملَ بأنواع الزينة، والتوسعَ فى التمتع بمشتهياته، مع حسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية . قالَ تعالى :

النهى عن الغلو في الدين

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ»[1] .

ونهاه عن الغُلو فى دينه الى حدّ ينسى فيه دنياه، أو تفسُدُ معه صحتُه .

قال تعـالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ»[2] . وقال عليه الصلاة والسلام:

« إِنَّ الدِّينَ يسرٌ ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَه . فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ »[3] .

الرخص في الاسلام

ورخّص له اذا عرض له عارض ، أو نزل به حادث ، أن ينتقل من الأحكام التى لايسهل عليه العمل بها الى أحكام أخرى سهلةٍ عليه ، شرعها له اذا تحقق ضررها أو غلب على ظنه أذاها . كان ذلك ؛ لأن الدين يعتبر صحة المرء رأس ماله الدينى والدنيوى .

فرخّص له فى الفطر اذا خشى من الصوم المرضَ أو زيادتَه ، أو غلب على ظنه الضرر .

ورخّص له فى التيمم اذا خاف الضررَ من المـاء ، أو عرضت له مشقةٌ فى الحصول عليه .

---

(١) ٣٢٠ — ٧ الأعراف . (٢) ٧٧ — ٢٨٠ القصص .

(٣) البخارى . كتاب الايمان . باب الدين يسر .

ورخّص له فى الصلاة قاعدا ، اذا كان فى القيام عَنَتٌ أو صعوبةٌ .

ورخّص له فى عدم السعى الى الجمعة، اذا كان وحَل غزير، أو مطر كثير، أو مايوجب تعبا ونَصَبا، الى غير ذلك مما لا يمكن حصرُه .

الحث على الاقتصاد

وحثّه على الاقتصاد ونفّره من التبذير والتقتير، اذ فى الأول حفظُ جسمه وماله ،وفى الأخيرين اللومُ و إهلاكُ جسده وممتلكاته .

قال تعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا »(١) .

وقال تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا »(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام: « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»(٣) . وقال أيضا لمن استشاره بِمَ يتصدّق من ماله ؟

(١) ٢٦ و ٢٧ — ١٧ الاسراء .   (٢) ٢٩ — ١٧ الاسراء .

(٣) البخارى . كتاب الزكاة . باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى .

« الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً (١) يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ (٢) » .

الحث على العمل

وحرّضه على السعى الى العمل لما فى البَطالة من تلف الجسم وتدسية (٣) الروح . قال تعالى : «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» (٤) وقال عليه الصلاة والسلام : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ (٥) » .

الخاصة الخامسة

صلاحيته لكل أمة فى أى زمان ومكان

الاعتقاد

ذلك أن هـذا الدينَ اعتقادٌ وعباداتٌ ، وآدابٌ نفسية واجتماعية ، ومعاملاتٌ دنيوية . أما الاعتقاد فقد أوجب الدينُ منه ما يوافق الفِطَرَ السليمةَ ، والعقول الكاملة : من وجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بسائر صفات الكمال ، وتنزهه عن

(١) يسألونهم بأكفهم . (٢) البخارى . كتاب الوصايا .
(٣) دسى روحه تدسية أفسدها بالمعاصى . (٤) ١٥ — ٦٧ الملك .
(٥) البخارى . كتاب البيوع . باب كسب الرجل ومن عمل يده .

المشابهة لمخلوق من مخلوقاته ؛ وهذا أسمى ما تصل اليه العقولُ من الاعتقادات، ولايزيده التفكر فيما خلق الله فى السموات والأرض ولا النظرُ فى العلوم الكونية إلا قوةً وتأييدا .

العبادات الاسلامية

وأما العباداتُ فقد شرع منها ما يهذب النفوس، و يطبعُ فيها ملكاتِ الخير و يبعدُها عن مَنازع الشر ، و يقربُها من الله تعالى، ويَكسِبُها ثوابَه ورضوانَه، وكلُّ عاقل تصبو نفسه الى ذلك ؛ لما يشعر به من بقاء روحه وحياته حياةً أخرى .

الآداب الاسلامية

وأما الآداب النفسية والاجتماعية : فان هذا الدينَ لم يترك أصلا من أصول الخير إلا قرّره، ولا بابا من أبواب الشر والفساد إلا حرّمه وأغلقه .

فقد حث على الصدق، والأمانة ، والصبر، والحلم، والصفح ، والاتحاد، والإحسان بالوالدين، والأقربين، ورعايةِ الجوار، والوفاء بالعهود ، والتّواصى بالحق ، والتعاونِ على البر، والعطفِ على الضعيف، ومؤاساةِ الفقير، والرفقِ حتى بالحيوان(١)، ونهى عن ضدّ

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « فى كل ذات كبد رطبة أجر» . البخارى ومسلم . تيسير الوصول .

ذلك كله . وأمر بالعـدل والمسـاواة فى الحقوق بين القوى والضعيف، والغنى والفقير، والرجل والمرأة، والمسلم وغير المسـلم الداخل فى ذمة المسلمين وعهدهم .

وأوجب احترامَ الأنفس والأَعراض والأموال، ومنع من الاعتـداء عليها، وشرع عقوباتٍ تزجر المخالفين لأمره تعـالى، وأباح التمتع بالطيبات فى حدّ الاعتدال، وحرّم كلَّ ما يفسد الصحة ويُسوِّئ السمعة، ويذهب بالمـال، ويوقِـعُ العداوةَ بين الناس: من شرب الخمر، والمقامرة وغيرهما؛ وحثنا على العمل والكسب والانتفاع بمـا سخّر لنا فى السموات والأرض : من هواء، وماء وحيوان، ونبات، وجماد، قال تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[1] وشرع الشُّورى بين أولى الأمر وأهلِ الحل والعقـد من الأمة؛ ليصلوا بها إلى ما فيه خيرُها وسعادتُها فى أمورها العامة، ومصالحها الهامة. قال تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ »[2]. وقال عزّ وجل: « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ »[3] .

(١) ١٣ — ٤٥ الجاثية . (٢) ٣٨ — ٤٢ الشورى .
(٣) ١٥٩ — ٣ آل عمران .

وأمر بإعداد القوة للدفاع عن النفس والدين وحماية مَنْ فى ذمتنا وعهدنا من غير المسلمين ، إلى غير ذلك من آداب النفس والاجتماع ، وكلُّها آداب لا يتقيد حسنها بزمان ، ولا تختص فائدتها بمكان ، بل يكون رُقِىُّ الأمة وفضلُها على قدر نصيبها منها ، ودرجةِ تمسّك أبنائها بها ، وحرصهم عليها .

المعاملات فى الاسلام

وأما المعاملاتُ الدنيوية فقد وضع الدينُ لها أحكاما كلية ، وأصولا عامة ، مراعيا فى ذلك دَرْءَ المفاسد وجلبَ المصالح ، لاختلاف تلك المعاملات باختلاف الزمان والمكان وأحوال الناس ، وفَوّض الى العلماء العارفين بمقاصد الدين حقَّ استنباط الأحكام الجزئية للحوادث التى تحدث للناس ، مُراعين فى ذلك عُرفَهم وعاداتِهم وطباعَهم .

هذا بعض ما حواه الدين الإسلامى من الآداب والأحكام ، سردناه لك لتعلم أنه دين شاملٌ كلَّ ما يحتاج اليه الإنسان ، لتهذيب نفسه ، وتقويم أخلاقه ، وتنظيم حياته وترقيتها ، فيفوزُ بسعادة الدنيا والآخرة ، فهو دواء كلِّ نفس فى أى عصر .

أثر التمسك بالاسلام

ولقد كان للمسلمين أرقى حضارة عرفها التاريخ أيام كانوا متمسكين بدينهم عاملين بأحكامه، متخلقين بأخلاقه، فلما انحرفوا عن صراطه أصابهم الضعفُ والانحلالُ : «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»(١) . ولا دواءَ لأمراض المسلمين الاجتماعية إلا الرجوعُ الى ما كانَ عليه سلفُهم الصالح : من فهم كتابهم، وسنةِ نبيهم، والعملِ بما فيهما .

ولئن رجعت الى التاريخ لتجدنّ تعاليمَ هذا الدين وعلومَه أساسَ هذه المدنياتِ الأوربية الحديثة، بما اقتبسه أهلها من المسلمين فى الأندلس حين كان يسطَع نور الإسلام على ربوعه، وبما نقلوه من الكتب الإسلامية فى مختلِف العلوم والفنون .

شهادة غير المسلمين للاسلام

وقد عرَف المنصفون من غير المسلمين فضلَ الإسلام ومزاياه . فوصفوه بأنه الدين الذى يُعلى من شأن النفوس بتصوّر الذات الإلهية على صفات فوق صفات المخلوقات، وأنه دينٌ

(١) ٥٣ — ٨ الأنفال .

الرفق بالناس والمساواةِ بين طبقاتهم، وأنّ الإسـلام مع كونه دينا هو قانون مدنىّ وسياسىّ بمـا أُودِع من الأحكام المتعلقة بذلك.

لهذا كله كان الدين الإسـلامى صالحا لكل أمة فى أى زمان ومكان . وكان خاتمَ الأديان ، البـاقىَ ما بقِى الزمان ، من خالف مبادئَه شقِى وهلك، ومن تمسك بها فاز وسعِد .

أثر الدين فى تهذيب النفس

يأمر الدين بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أنه خالق كل شيء ، وأنه مدبرُ الكون والمصرفُ لشئونه ، فهو الذى يُعطى ويَمنع ، والذى يضرُّ وينفع ، والذى يُحيي ويُميت ، لا شَريكَ له فى مُلكِه ، ولا يستحقُّ العبادةَ أحد سواه .

هــذا الاعتقاد يحرّر النفس ويرفعها ، ويطهرها من خُرافات الشرك وأوهامه ، وأوزاره وآثامه ، فلا تنحط الى عبادة جمــاد أو حيوان ، ولا تصف بالإلهية انسانا كائنا من كان .

أثر العبـادات فى النفس

وقد فرض الدين عباداتٍ كلُّها ذو أثر فى النفوس حميد .

أثر الصلاة

فرض الصلاةَ وجعل من شروطها طهارة الثوب والبدن والمكان : فيقفُ الانســان مُوَجها قلبَــه الى ربه خمسَ مرات فى اليوم ، نظيفَ الظاهر طاهر الباطن ، مُثنيا عليــه تعالى بما هو أهله ، طالبا منه العون والهـداية ، فيؤثر ذلك فى نفســه ويعوّده

مراقبةَ الله تعالى وخشيتَه، فيمتنع عن الوقوع فيما حرّم عليه . « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ »[1] : وكما تمنع الصلاةُ من الوقوع فى المحرّم كذلك تبعث فى النفس الطُّمأنينةَ فلا يشتدّ بها الجزع اذا أصاب الانسانَ شر، وتنزع بها الى بذل المعروف فلا يكونُ صاحبها منوعا اذا مسه الخير : « إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ »[2] .

أثر الصوم

أما الصوم فانه يربى فى الانسان الصدقَ، والصبرَ، والقناعة، وضبط النفس، وقوةَ الارادة، واحتمالَ المشاق .

يحترم المسلم الصوم امتثالا لأمر ربه، ورغبةً فى ثوابه، وقد يخلو بنفسه وليس عليه رقيب غيرُها، ويكونُ قد اشتدّ به الجوع والعطش، وفى متناوَل يده أطيبُ المطاعم، وأعذب المشارب، فيأبى أن يتناول شيئا تعظيما لأمر الله تعالى، ووفاء بعهده له ، أليس فى تكرير ذلك ثلاثين يوما غيرَ صوم التطوع كلّ سنة ما يقوّى هذه

(١) ٤٥ — ٢٩ العنكبوت . (٢) ١٩ — ٢٣ المعارج .

الفضــائل فى نفس المؤمن ، بلى وإنه ليعرف بالصوم فوق ذلك مقدار النعمة عنــد فواتها ، ومكانة الاحسان الإلهى فى التفضل بهـا .

أثر الزكاة

أما الزكاة التى فرضها الله تعالى فى مال الغنى سدّا لحاجة الفقير، وتفريجا لكُربة الغــارم، وتيسيرا لابن السبيل ، وعونا على سبيل الخير العام ، فانها تُعوّد المؤمن الاحسانَ وتُقوّى فى نفسه الرحمة ، وتستلّ الأضغان من قلُوب البائسين على الأغنياء المترَفين ، وتُشعِرُ قلوبَهم محبتَهم، وتصدُّهم عن الاساءة اليهم .

أثر الحج

وأما الحج فان أعماله تُشعر النفوسَ بالمساواة: يكون المسلمون فيها متجرّدين عن زينة الحياة الدنيا ،ليس على الواحد منهم إلا رداء وإزار، وكلُّهم خاضع خاشــع لعظمته تعالى وجلاله ، لا فرق بين غنى وفقــير ، وصُعلوك وأمير، هنالك تطمئنُ النفوس ، وتعرف أن زخرف الحياة باطل ، وأنه لا ينبغى الاستعلاءُ والاستكبارُ بجاه ولا مال، وأن الناس كلُّهم لآدم، وآدمُ من تراب .

أثر الانتهاء عن المحرمات

وكذلك حرّم الدين ما يُفســد العقل ويحطّ من كرامة المرء، ويَذهب بحيــائه وماله، ويوقع بين الناس العــداوةَ : مِن شرب

الخمر، والمقامرة، وقتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، والغيبة، والنميمة، وكلّ ما فيه إيذاءُ غيره .

فمن يؤمنُ بالله تعالى حقَّ الايمان، ويقوم بفرائضه على الوجه الصحيح، تعظيما لأمره تعالى، وينتهى عن محارمه خشيةً منه وخوفا من عقابه، تتربّى فيه الملكاتُ الفاضلة، وتطهُر نفسه من الرذائل والأخلاق السيئة .

التهذيب يظهر فى المعاشرة والمعاملة

ويَظهر أثرُ تهذيب الدين للنفس فى المعاشرة والمعاملة، فمن كان متدينا واقفا عند حدود ما أُمِر به ونُهى عنه ، حسُنت معاشرته للناس ، واعتدلت معاملتُه لهم ، فيحترمُ والديه وأقاربه ويبرُّهم، ويواسى إخوانَه ويساعدُهم، ويقوم بحقوق أهله ان كان متزوّجا ، ويربى أولاده ويُثَقف عقولهم ويهذب نفوسهم، لا يُؤذى جارَه فى نفس ولا عرض ولا مال، ولا يغتاب ولا يَنِمّ، ولا يكذب اذا حدّث، ولا يُخلف اذا وعد، ولا يخون اذا اؤتُمن، ولا يغُش اذا باع أو اشترى، ولا يُطفّف كيلا ولا ميزانا، ولا يماطل فى حق، ولا يَبخَس أحدا حقَّه، واذا عُهد اليه فى عمل أتقنه وأدّاه على أكمل وجه فى غير تسويف ولا تأخير، واذا تولى أمْر الناس

نظر فى مصالحهم وعدَل فيهم ولم يكن لغير الحق سلطانٌ على نفسه ، فلا يحابى شريفا، ولا يُضيع حقّ ضعيف، وقُصارَى القول : أن الدين بمـا فيـه من أوامر ونواهٍ ، ومدحٍ لمحاسِن الأخلاق، وذمٍّ لمساوئها ، يؤثر فى النفـوس فيهذبُها ، ويظهر أثره فى الأعمـال فينظمُها ، ويجعلها جارية على منهج الخير العام والمصلحة التامة .

أثر الدين فى حياة الفرد والمجموع

ان للدين الاسلامىّ الأثرَ المحمودَ فى حياة الأفراد وحياة الأمم؛ بما أَمَر به من الأعمال الصالحة، وما نَهى عنه من المعاصى والآثام، وما حَثّ عليه من خصال الخير، وما ذَم من صنوف الشر .

أثر الدين فى حياة الفـــرد

فاذا تمسك كل فرد بدينه فانه يحيا حياةَ سعادةٍ وهناءة، فيعيشُ صحيحَ الجسم، مصونَ العرض، باجتناب محارم الله تعالى، غيرَ كَلٍّ على غيره باتباعه ما أمر الله : من العمل والسعى فى طلب الرزق، أمينا على ما يُستحفظ من الأموال، وما يُعهد اليــه من الأعمال، صادقا فى أقواله : لا يفترى ولا يختلق ، صابرا على ما يصيبه من نوائب الزمان، مقـداما جريئا فى إظهار الحق، لا يَهِن لمـا يصيبه فى سبيله ، بَرًّا بوالديه وذوى قرابتــه، عَطوفا على المرضى ، رحيما بالضعفاء والمساكين، متواضعا فى غير ذلة، عادلا مُنصفا فى معاملته لغيره ، غيرَ جبّـار، ولا مختـال ، ولا فخور، سمحا جوَادا ، يُنْفق مما رزقه الله تعالى فى سبيل الخير وأعمال البر : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًـا

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»(١) .

أثره فى حياة الأسرة

ظهر لك أثر الدين فى حياة الفردِ وأنه يجعلُه انسانا كامل الانسانية، وإن أثره فى حياة المجموع لأظهرُ وأوضح .

وأول مجموع يكوّن الفردُ هو الأسرة ، وقد أوجب الدينُ على كل فرد منهما حقا للآخر ، فأوجب على الزوج أن يحترم زوجه ويحميَها ويُنفق عليها من سعته، وعليها أن تحترمه كذلك ، وتُدبِّر منزله ، وتحافظ على ما فيه، وعليهما معا أن يعتنيا بتربية أولادهما تربيةً حسنة صالحة لينشَئوا بَرَرَةً كاملين . وعلى الأولاد أن يُحسنوا بوالديهم وأقاربهم .

فاذا أدّى كل فرد منها ماعليه، وكان هو فى حياته على ماوصفنا، اجتمع شملُ الأسرة، وانتظم أمرها، وعاشت عيشة راضية .

أثره فى حياة المجموع

وكما أوجب الدين على كل فرد حقا لأهله وعشيرته ، فرض عليه أن يحترم أعراضَ الناس جميعا وأنفسَهم وأموالَهم، فلاينتهك

(١) ٩٧ — ١٦ النحل .

حرمة عِرض، ولا ينال أحدا بأذى فى نفسه ، ولا يتعدّى على ماله، ولا يستحِلّه بغير حق .

وكذلك أمر بالتعاطف والتراحُم،وأن يكون للفقراء والضعفاء نصيب من أموال الأغنياء وجاهِ الأقوياء ، واذا ائتمر كل انسان بما أُمِر به وكانت الأفراد والأُسَر على ما بينا ، تكوّن من ذلك مجموع مهذَّب راق هو الأمة، وكان للدين أعظم الأثر فى حياتها ، فلا يكون بين أبنائها تحاسدٌ ولا تباغض ، وحل بينهم الوِئامُ محلَّ الخصام ، والتعاونُ على الخير محَلَّ التنازع والتخاذل ، فارتقت ، وقويت، وسادت، وكانت أمةً جديرة بالبقاء .

حالة العرب أصدق شاهد بتأثير الدين في حياة الأفراد والأمم

ما بيناه فى خصائص الدين الاسلامى من حال العرب قبل الاسلام، وما صاروا اليه بعده أصدقُ شاهد بعظم تأثيره فى النفوس، واصلاحه حالَ الأفراد والجماعات .

قلنا ان العرب كانوا قبائلَ تعبد الأصنامَ، وكانوا فى خصام ونزاع مستمر، فلما جاء الاسلام وجّه قلوبَهم الى الله تعالى، واستأصل من بينهم أسبابَ العداوة والخصام ، وأصبحوا بصدق إيمانهم إخوانا متحابّين، وبحسن إسلامهم قادةً هادين مصلحين : « لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ . إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) . « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٢) .

---

(١) ٦٣ — ٨ الأنفال . (٢) ١١٠ — ٣ آل عمران .

أصلح الله بالاسلام حال العرب فصاروا به أمة عالمةً موحّدة، متماسكة متناصرة، فى أقلّ من ثلاثين سنة . ثم تناول إصلاحُه الأممَ الأخرى : مَن أسلم منهم ، ومن لم يسلم ودخل فى ذمة الاسـلام وعهده ؛ واتسع العـالَم الإسلامى وامتـدّ ملكُه من المحيط الغربى (الأطلسى) الى جدار الصين، فى أقلّ من قرن واحد، وهو إصلاح لم يعهد له نظير فى تاريخ الأديان .

وذلك كله بفضل مااشتمل عليه هذا الدينُ من العقائد الحقة، والآداب الصحيحة ، والأحكام العادلة ، والسياسـة الرشيدة . ولو اتبع المسلمون فى العصور الأخيرة ما كان عليه سلفُهم من هَدْى الدين ما تأخروا ، وما تقطعت أوصالهم ، وما ساءت أحوالهم ، وفقنا الله لاتباع مبادئه، والعمل بأحكامه، ليعود للاسلام عزُّه، وللمسلمين مجدُهم . آمين .

الـــــوحى

معنى الوحى لغة

أصل معنى الوحى الاشارةُ السريعة . ثم أُطلق على الإعْلام بالشيء فى خفاء وسرعة . ويراد بالسرعة أن تُلق المعـلومات فى النفس دَفعة بدون مقدّمات وتفكر . وقد استعمل الوحى بمعنى الإلهام . قال تعالى : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» [(١)] .

وحى الله الى أنبيائه

ووحْىُ الله الى أنبيائه عبارةٌ عمّـا يلقيه فى نفوسهم من العلوم التى يريد جل وعلا أن يبلغوها الناسَ ؛ لهدايتهم و إصلاحهم فى دنياهم و إِسعادهم فى آخرتهم . ويكون النبي بعد الوحى اليه على ثقة تامة بأنه من الله تعالى .

لا يمكن معـرفة حقيقة الوحى

وليس فى الامكان أن نَقفك على حقيقة الوحى، ونصل بك الى سره ؛ فان هذا شيء لا يعرف كُنْهَه من الناس إلا من شرفه الله به من أنبيائه .

---

(١) ٦٨ — ١٦ النحل .

ولكنا نقول ان الله تعالى يصطفى من خلقه أفرادا يُقوّى أرواحهم، ويطهر قلوبهم، ويصفّى نفوسهم، ويبرئهم من مساوئ الأخلاق، وذميم العادات، ولا يجعل لشواغل الدنيا وزخارفها سلطانا عليهم؛ فإذا أراد عز وجل أن يلقى إلى واحد منهم ما يبلغه عبادَه، وجّه قلبَه اليه، فانصرف عن عالَم المادّة واتصل روحُه القوىّ بعالَم الغيب، فتلقى عنه تعالى ما أراد من المعارف التى لا يمكن أن ينالها الناس بكسبهم؛ وهم فى أشدّ الحاجة اليها لتطهير نفوسهم، وإصلاح أحوالهم.

أقسام الوحى

والوحى أنواع بيّنها القرآن الكريم فى قوله تعالى: « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ (١) ».

فهذه الآية الشريفة تدل على أن طرق إعلام الله ما يشاء لأنبيائه ثلاثة:

النوع الأول

(أحدها) الاعلام بلا واسطة، وذلك أن يُلهَم النبى بقوّته الروحانية الفائقة التى فُطر عليها، ما يريد الله أن يبلغه الناسَ. وهذا الالهام يحصل فى روح النبى دفعة واحدة. ولا يكون الروح متعلقا

(١) ٥١ — ٤٢ الشورى.

بشيء يشغله ، لتجتمع الهمة ويتم الانسلاخ عن العالم المادى والاتصال بالعالم الروحانى . والرؤيا الصالحة من هذا القسم . وقد وقع ذلك لابراهيم عليه السلام : فقد رأى فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل ، فلما استيقظ علم أنه مأمور بذلك ، ولما هم بتنفيذ أمره تعالى أكرمه ورحمه ورحم ابنه بالفداء ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ . فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى . قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١) . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » (٢) .

الرؤيا الصالحة من الوحى

وكانت الرؤيا الصالحة أول وحى نبينا صلوات الله وسلامه عليه . فقد ورد فى الحديث المشهور : إن أول مابدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (٣) .

---

(١) أضجعه على جبينه أى جانب جبهته . (٢) ١٠١ الى ١٠٧ — ٣٧ الصافات . (٣) ضوء الصبح .

النوع الثانى

وأما النوع الثانى فهو مايظهر فيه للنبي شيء تتجه اليه روحه تمامَ التوجه ، وتنقطع عن الشواغل الكونية ، فيكون هذا الشيء حجابا بين عالم الشهادة وعالم الغيب . فيسمع الوحى من وراء هذا الحجاب ، ومن ذلك النار التى رآها موسى عليه السلام . فطار اليها لُبّه ، وتعلق بها قلبه ، وانحصرت فيها همته ، فكان منها رسالته : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى »[1] .

النوع الثالث

وبقى النوع الثالث وهو التلقى عن الله بواسطة الملَك المسمى بالروح الأمين ، وهو المعبر عنه فى الآية السابقة بقوله تعالى : « أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » . والمعبر عنه فى قوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ »[2] .

---

(١) ٩ الى ١٣ — ٢٠ طه .

(٢) ١٩٣ الى ١٩٥ — ٢٦ الشعراء .

فهذا النوع هو خطاب الروح الملَكى للروح الانسانى؛ لما يكون بينهما من الاتصال بأمر الله تعالى : وذلك أن روح الرسول أقوى الأرواح الانسانيــة وأطهرُها، فتكون على اسـتعداد لأن تتصل بعالم الأرواح، اذا أراد الله تعالى أن يُعلم النبيَّ ما فيه خير وصلاح لخلقه . ومن النوع الثالث وحىُ القرآن الكريم الى النبي صلى الله عليه وسلم .

وجودما هو ألطف من المـادة

أما وجود بعض الأرواح العاليــة وظُهورها لأهــل تلك المرتبــة السامية ، ممن يختارهم الله لرسالته فغير مستحيل ، بعــد ما أثبت العــلم قديمُه وحديثه أن الوجود مشتمل على ما هو ألطف من المـادة،وان كان مُغيَّبا عنّا، فلا مانع من أن يكون هذا الموجود اللطيف مَشرِقا لشيء من العلم الإلهى، وأن يكون للأنبياءِ إشراف عليه، فاذا جاء النبي وأخبر الناس بأن الملَك أَوْحَى اليه عن الله شيئا وأُيِّد بالمعجزة، وجب عليهم تصديق ذلك،والاذعانُ لما جاء به .

القرآن الكريم

القرآن الكريم : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » (١) . أوحاه الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليكونَ من المنذرين بلسان عربيّ مبين ، خاطَبَ فيه القلوبَ بالموعظة ، والعقولَ بالدليل ، ولفَتَ النظرَ ، الى مافى الكون من آيات وعبر ، فانطلقت به الأفكارُ من قيودها ، وتحركت بعد خمودها وجمودها ، فاستبان الحق ، ووضح النهج ، وقامت الحجة ، وانزاحت الشبهة .

نزل القرآن على محمد النبي العربى الأميّ الذى لم يتلق عن أستاذ ، ولم يجلس الى فيلسوف ، ولم يتلُ من قبله كتابا ، ولم يخط بيمينه حرفاً — نزل — تأييدا لدعوته ، وشاهدا بصدق رسالته ، فتحدّى به العربَ أجمعين ، ولم يخُصّ بذلك طائفةً دون طائفة ، ولا قبيلا دونَ قبيل ، وقد كانوا أربابَ الفصاحة ، وفُرسانَ البلاغة ، النثر أنفسَ بضاعتهم ، والشعر أربحُ تجارتهم ، كان فيهم الخطباء المصاقع ،

(١) ١ — ١١ سورة هود .

والشعراء المُفلِقون، يعقدون للقول المجامع ، ويقيمون الأسواق، فيغالبون به ويفــاخرون، ويتناضلون ويتصاولون ، وكانوا ذوى أَنَفَة وعزة واستكبار ، يأبَون الضيم وينفِرون من الصَّغار ، وكانوا يحرِصون كل الحرص على التغلب عليه صلى الله عليه وسلم وإبطال دعواه، ومع ذلك دعاهم بأمر الله تعالى فى آيات القرآن الى المعارضــة، وأغراهم بالمناهضة ، فقال تعالى : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ »(١) . وقال تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) . ولقــد كان لهم أن يجمعوا من العقــلاء والفصحاء من شاءوا، فيأتوا بشىء من مثل ما أَتى به؛ ليُبطلوا حجته، كما كانوا يجتمعون للباهاة بالقــول والمُباراة؛ وليربئوا بأنفسهم عن عار الغَلب ، وليصونوا دماءهم التى سفكها عنادهم واستكبارهم ، ولكنهم لم يجترئوا على شىء من ذلك، ولم يُقْدموا عليــه مع طول زمن التحدّى، وإمعانهم فى التكذيب والتعدّى .

---

(١) ٣٤ — ٥٢ . الطور . (٢) ٢٣ — ٢ البقرة .

عجز العرب عن معارضته فهو كلام الله

واذا عجز العرب عن المعارضة كان غيرهم أشدّ عجزا ؛ لهذا سجله الله على الإنس والجن جميعا بقوله تعالى : «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (١) . حكمٌ شامل قاطع دائم، لا يمكن أن يَصْدر من انسان لا علم له بما يُجَدِّد من القُوى على طول الزمان، وانما هو حكم الله الواهِبِ للقوى، المطلِع على ما كان وما سيكون. العالِم بأن القرآن الكريم خارج عن طوق البشر، مُعْجِزٌ كُلَّ من رام معارضته ، أو أراد مُناهضته، واذن لا يكون القرآن من كلام إنسان؛ بل هو تنزيل من حكيم حميد .

ماتضمنه القرآن الكريم

تضمن القرآن الكريم توجيه النظر وطلَبَ التفكرِ فيما خلق الله فى السموات والأرض؛ لنستدل به على وجوده تعالى وقدرته، وسائرِ ما اتصف به من صفات الجلال والكمال، فى مثل قوله تعالى : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ

(١) ٨٨ — ١٧ الاسراء .

الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ»(١) .

وقصّ علينا من أخبار الأمم الماضية ما فيه عبرة لنا ، وبيّن أن ما أصابهم من الاضمحلال والهلاك كان جزاء إعراضهم عما شرع لهم ، وفسوقهم عن أوامر ربهم ، وعدم شكرهم ما أنعم به عليهم : «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ . وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا . وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ»(٢) .

ونعى على علماء الأديان السالفة تحريفَهم كتبهم بتأويلها على غير وجهها ، ونسيانَهم حظًّا مما ذُكِّروا به ، وإدخالَهم في دينهم ما ليس منه ، وتحليلَهم بحسب أهوائهم وشهواتهم ؛ في آيات كثيرة من الكتاب . قال تعالى : «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»(٣) . «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

(١) ٣ الى ٦ — ٤٥ الجاثية . (٢) ٦ — ٦ الأنعام .
(٣) ١٣ — ٥ المائدة .

يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»[1] .

وحوى من الأحكام الكلية الصالحة لكل زمان وكل أمة ما يكفُل السعادة الدنيوية والأخروية اذا فُهِم على وجهه وأُدّى حق تأديته .

وحث على الأخلاق الفاضلة : من الصبر، والصدق، والأمانة، والعدل، وحسن المعاملة، ورعاية الجوار، والاعتصام بحبل الاتحاد، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الى غير ذلك مما ينهض بالأمم ويرقّى بها الى أعلى درجات العز والسيادة .

هذا الى إخباره بأمور غيبية جاءت من بعدُ على ما أخبر بها . من ذلك قوله تعالى : «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ»[2] . «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ»[3] . وقد كان كل ذلك . والى اشارته الى أمور كونية وأسرار

(١) ٧٩ — ٢ البقــرة . (٢) ٢٧ — ٤٨ الفتح .

(٣) ٢ الى ٤ — ٣٠ الروم .

إلهية كشفها البحث وأثبتها العلم، من نحو قوله تعالى : «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ»(١) . «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ(٢) يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ(٣) لَا يَبْغِيَانِ»(٤) . «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . أَفَلَا يُؤْمِنُونَ»(٥) .

وصف للقرآن بليغ

وهو فى ذلك كله كما وصــفه أحد البلغــاء . ان أوجز كان كافيا، وان أكثر كان مُذَكرا ، وان أمر فناصحا، وان نهى فمشفقا ، وان حكم فعادلا ، وان أخبر فصادقا ، وان بيّن فشافيا ، لا يملّه قارئه، ولا يمُجّه سامعــه ، يزيد على الترديد حلاوة ، وعلى التكرار طلاوة ، وغيره يعادى اذا أعيــد ، ويمل مع التكرار والترديد .

---

(١) جمع لاقحة أى تحمــل اللقاح الى الأشجار فيكون الأثمـار أو تحمل السحب الماطرة . (٢) ٢٢ — ١٥ الحجر . (٣) خلط البحر العذب والملح فى مرأى العين فهما يلتقيان لكنهما لا يمتزجان لمـا بينهما من الاختلاف فى التكوين كاختلاف ثقلهما النوعى وهو المراد بالبرزخ أى الحاجز . (٤) ١٩ و ٢٠ — ٥٥ سورة الرحمن . (٥) ٣٠ — ٢١ الأنبياء .

ذلك هو القرآن الكريم ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ! آخرِ الأنبياء وخاتَمِ المرسلين ، المكتوبُ فى السطور ، المحفوظُ فى الصدور . من بَدْء نزوله الى ما شاء الله أن يكون : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [1] .

---

(١) ٩ — ١٥ الحجر .

كيف نزل القرآن الكريم

نزول القرآن منجما وسبب ذلك

اقتضت حكمة الله تعالى اللطيف الخبير ألّا يُنَزِّل القرآن جملة واحدة؛ لتستعد القُوى الانسانية لتلقّى هذا الفيض الإلهى، وتقْوَى على وعْيه وفهمه؛ ولتتيسر كتابته وحفظه؛ لهذا نزل مُنَجّما مُفرّقا، فكانت آيات الأحكام وغيرُها تنزل بحسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال، وكان ذلك أحكمَ فى التشريع، وأبلغ فى التأييد، وأشد فى التعجيز.

مدّة نزوله وأول ما نزل وآخره

نزل القرآن فى خلال ثلاث وعشرين سنة، وكان أوله نزولا: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [(١)]» . وخاتمته: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً [(٢)]» . نزلت فى حجة الوداع والناس وقوف بعرفة، ورســول الله رافع يده الى

(١) ١ — ٤ سورة العلق . (٢) ٣ ـ ٥ المائدة .

السماء، والمسلمون متوجهون بالدعاء الى الله تعالى ، وكان بين نزولها ووفاته صلى الله عليه وسلم إحدى وثمانون ليلة .

عدّة سوره والمكى والمدنى منه

وعدّة سوره (١١٤) أربعَ عشرةَ ومائة سورة، نزل منها بمكة قبل الهجرة ست وثمانون سورة ، وتسمى السور المكية . والباقى بعد الهجرة وتسمى المدنية، وأكثرها من السور الطِوال .

كانت تنزل منه الآية والآيتان وما هو أكثر من ذلك ، وقد تنزل السورة بتمامها اذا لم تكن طويلة ، ومن هذا فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص .

أمر النبي أصحابه بحفظ ما ينزل واعتناؤهم به

وكان كلما نزلت آية أو سورة وسُرّى عنه صلى الله عليه وسلم يبلغها أصحابه، ويستحفظهم إياها، فيحفظونها من فورهم ويعتنون بذلك أتم اعتناء ، ثم يتلون أمامه ما حفظوا ؛ ليتثبتوا من حفظه على ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم .

وكان ذلك من أعظم القُرَب عندهم ، وكانوا يُعلمونه من لم يشهدوا النزول من اخوانهم ؛ وبهذا حَفظ القرآنَ الكثيرُ من الصحابة رضوان الله عليهم .

أمره أصحابه بكتابة ما ينزل

وكذلك كان عليه الصلاة والسـلام يأمر كُتَّاب الوحى بكتابة ماينزل وقت نزوله . ومن هؤلاء : زيدُ بن ثابت ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأَنَس بن مالك ، وأُبَىّ ابن كعب ، وعبد الله بن سلَام ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وغيرهم كثير رضى الله عنهـم ، فكانوا يكتبون ما يمليـه عليهم فى الرِّقاع(١) وعلى عُسُب(٢) النخيل واللِّخاف(٣) وغيرها .

ترتيب القرآن توقيفى

وقد أجمع المسلمون على أنه عليه الصلاة والسلام كان يُوَقِّف أصحابه عند الكتابة أو الحفظ على ترتيب آيات السور ، ويعلمهم مواضعها منهـا ، وكان يقرأ السـور الطوال وغيرها فى الصلوات وخارج الصـلوات جهرا فيسمعونه ، وكانوا يقـرءون أمامه على ما رتَّب وعلَّم .

عرض القرآن وكتابته وحفظه قبل وفاة الرسول

وقد ثبت أنه صـلى الله عليه وسلم عَرَض القرآن بعد تمـامه عَرْضتين على جبريل ، ثم قرأه عليه أصحابه بعد ذلك على الترتيب

---

(١) الرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق . (٢) العسب جمع عسيب وهو الذى لا ينبت عليـه الخوص من سعف النخيل (الطرف العريض من الجريد) . (٣) اللخاف جمع لخفة بالفتح وهى صفائح الحجارة .

الذى نعرفه، فلم ينتقل عليه الصلاة والسلام الى جِوار ربه، حتى كان القرآن كله مكتوبا، يحفظه العدد الكثير من أصحابه . لكن الصحائف والألواح التى كتب عليها لم تكن مجموعة بين دَفتين فى مصحف واحد، وإنما كان ذلك من بعد .

جمع القرآن وتدوينه

قدّمنا أن القرآن كان يحفظه العدد الكثير من الصحابة، وكان مكتوبا فى الرقاع وغيرها فى حياته صلى الله عليه وسلم، لكنه كان مفرقا غير مجموع فى مصحف واحد، ولا مكان واحد، حتى لحق عليه الصلاة والسـلام بالرفيق الأعلى، وإنما جُمع فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

اشارة عمـر على أبي بكر بجمع القرآن وسبب ذلك

وذلك أن عمر رضى الله عنه دخل عليه بعد سنتين من ولايته، فقال له ان أصحاب رسـول الله يتهافتون على القتال تهافُتَ الفَراش على النار، وإنى أخشى ألّا يشهدوا موطنا إلا فعلوا ذلك حتى يُقتلوا، وهم حَمَلة القرآن فيضيع وينسى، ولو جمعتَه، فنفر أبو بكر وقال : أفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتراجعا فى ذلك، ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت (من كُتّاب الوحى ومن الحفَظَة المتقنين) فعرض عليـه قول عمر، وعمر ساكت، فنفر زيد كما نفر أبو بكر وقال : نفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسـلم ،

فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ، انه والله خير . وما زال بهما حتى وافقاه .

جمع أبى بكر الحفظة المتقنين ليجمعوا القرآن

فجمع أبو بكر الحفظة المشهودَ لهم بالاتقان ، وكان منهم زيد ابن ثابت ، وأُبَىّ بن كعب ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأخذوا يوالون الاجتماع ، وأحضروا كل ما كانوا كتبوه باملاء النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذوا يقرءون فيقابلون حتى وصلوا الى قوله تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ . بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» (١) . وهو آخر سورة التوبة ، فلم يجدوه مكتوبا مع أنه محفوظ ، فما زالوا يبحثون عنه حتى وجدوه مكتوبا عند أبى خُزَيْمة بن أوس الأنصارى ، وكذلك آية : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » (٢) . من سورة الأحزاب فانهم وجدوها عند خُزَيمة بن ثابت ،

(١) ١٢٨ و ١٢٩ — ٩ التوبة . (٢) ٢٣ — ٣٣ الأحزاب .

فكتبوا القرآن آياته وسوره على الترتيب والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضع عند أبي بكر، فلما توفي كان عند عمر، وبعده وضع عند أم المؤمنين حفصة بنته رضى الله عنها .

المصحف الامام أو مصحف عثمان

اشارة بعض الصحابة على عثمان بكتابة المصاحف

قلنا إن الصُحف التى كتب فيها القرآن كانت عند حفصة بعد وفاة أبيها ، فلم يكن قد كُتب منه مصاحفُ يتداولها الناس ويقرءون فيها، فلما كان عثمان رضى الله عنه أشار عليه بعض الصحابة أن يكتب للناس مصاحف، ويرسلَها الى الآفاق التى انتشر فيها الاسلام؛ ليجتمع المسلمون على مصحف واحد؛ وحتى لا يقعَ فى القرآن زيادة ولا نقص، ولا تبديل فى آياته ، ولا تغيير فى ترتيبه ،فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا الصحف؛ ننسخها فى المصاحف ثم نردّها اليك، فأرسلت بها حفصة الى عثمان،

كتابة زيد ومن معه المصاحف

فأمر[1] زيدَ بن ثابت (وهو أحد الجامعين للقرآن فى عهد أبى بكر كما قدّمنا) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحرث بنِ هشام فنسخوها فى المصاحف، ثم ردّ عثمان الصحف

(١) جاء فى بعض الروايات أن زيدا كتب فى المصحف هو ومن معه من الصحابة أوّلا ثم أرسل عثمان الى حفصة لتبعث بالصحف التى عندها فعرض زيد عليها ما كتب فلم يختلفا فى شىء ثم ردّت الصحف الى حفصة بعد ذلك . اهـ .

ارسال عثمان المصاحف الى الأمصار

الى حفصة ، وأرســل الى كل مصر مصحفا ، فأرســل الى مكة والكوفة والبصرة ودِمَشق، وأبقى بالمدينة مصحفا، وأمر بما سواه من الصحف أو المصاحف أن يحرق، وصار الناس يقرءون على مصاحفه ويكتبون منها مصاحفهم، وتتابعوا على ذلك، وقد اشتهر ما كُتب بأمر عثمان بالمصحف الامام ، أو مصحف عثمان، وهو المعروف فى كلامنا الآن بالمصحف العثمانى ، نسبة الى عثمان رضى الله عنه .

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان

والفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان ، أن الأوّل كان خشــيةَ أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حَفَظَته؛ لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد، فجَمعه فى صحائف مرتِّبا لها على ما وقَّفهم عليه النبى صــلى الله عليه وســلم ، وأَن الثانى كان خشية أن يُقرأ كتاب الله على غير ما سمع من رســوله بعد العَرضة الأخيرة، فنسخ الصحف التى جمعها أبو بكر فى مصحف واحد ، وكتب من ذلك عدّة مصاحف كما سبق .

ما كانت عليه كتابة المصحف وما صارت اليه

كتابة المصاحف غير مشكولة ولا منقوطة وسر ذلك

كان المصحف الذى كتب بأمر عثمان غير مشكول ولا منقوط ، وذلك ليتيسر قراءته على الأوجه[1] التى صح سماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى القراءات التى نسمعها من القرّاء الآن ، فهى توافق رسم المصحف العثمانى ، وقد صح إسنادها كلها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يتعارض معنى القرآن عليها ، وقرأ بها الصحابة والتابعون ومن بعدهم ، واشتهرت كل قراءة عن راوٍ من الرواة المشهورين بصدق الرواية و إتقانها ، وأخذها عنه الخلق الكثير .

(١) من هذه الأوجه اختلاف حركات الاعراب فى مثل قوله تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) ١ — ٤ النساء فقد قرئ بالنصب والجر . ومنها اختلاف حرف المضارعة فى نحو قوله تعالى : (وما ربك بغافل عما تعملون) ١٢٣ — ١١ هود قرئ بالتاء والياء . ومنها اختلاف الكلمة بين أن تكون حرفا واسما فى نحو (فناداها من تحتها) ٢٤ — ١٩ مريم قرئ بكسر الميم على أنها حرف جر وبفتحها على أنها اسم موصول وتبع ذلك جر الظرف (تحت) على الأول ونصبه على الثانى . وكل هذه القراءات ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو كتب مصحف عثمان مشكولا منقوطا لثبت به قراءة واحدة فقط . اه .

شـكل أواخر الكلمات فى المصحف وسبب ذلك

لكن لمـا دخل غير العرب فى الاسلام من الفرس وغيرهم ، وفشا اللحن على الألسنة، خيف على القرآن أن يُلحَن فى قراءته . فطلب زياد بن أبيـه وكان أميرَ العراق الى أبى الأسود الدُّؤلى ، وهو من كبار التابعين المتقنين للقراءة، أن يضع للنـاس علامات تضبِط قراءتهم ، فابتـدأ بالمصحف فشكّل أواخر الكلمات فيه، وجعل الفتحة نقطةً فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة الى جانبه، وجعل علامة الحرف المنوّن نقطتين، ثم انتشرت طريقته وعمِل الناس بهـا . لكنها لم تحفظ الألسـنةَ من الخطأ كلّ الحفظ، فكان يقع التحريف(١) والتصحيف(٢) فى القراءة، فدعا ذلك الى إعجـام الحروف ، وشـكل أوائل الكلمات وأواسطها وأواخرها ، قام بالعمل الأوّل نصرُ بن عاصم ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا بأمر الحجاج رحمه الله ، وقام بالثانى الخليلُ بن أحمد فغيّر صورة الشكل الذى وضعه أبو الأسود، وجعل الفتحة ألفا مسطوحة فوق الحرف ، والكسرة ياء تحته، والضمة واوا فى أعلاه، ووضع علاماتٍ للمدّ والتشديد .

اعجام الحـروف وشكل كل حروف الكلمات

---

(١) هو التغيير فى حركات الحروف . (٢) هو التغيير فى نقط الحروف .

عناية القراء بما يعين على اجادة تلاوة القرآن

ولقد عُنى الحُفاظ والقُرّاء من بعــد ذلك بوضع فواصلَ بين آياته، وعلامات تُبين مواضع الوقف والابتداء فيه، وأخرى تُعين على إحكام تلاوته ، وجرت عادتهم أن يُبينوا فى أول كل سورة أهى مكية أم مدنية ويذكروا عدد آياتها .

عناية المسلمين فى كل عصر بكتابهم

وما زال المسلمون من الملوك والأمراء وغيرهم فى كل عصر، يتنافسون فى تحسين كتابته بأنواع الخط المختلفة[1]، ويتبارون فى تجويد قراءته، يتلقاه خلفهم عن سلفهم، الى العصر الأخير الذى ظهرت فيه المطابع فطبع ألوفُ الألوف من المصاحف: فى مصر والأستانة والهنــد وبلاد الفرس وأوربة مع الاتقان والضبط التامّين، وآخر ما كان من ذلك عناية الحكومة المصرية بطبع هذا الكتاب الكريم، متحريةً فى طبعه الرسمَ الذى كَتب به الصحابة المصحف الامام، بأمر عثمان رضى الله عنه .

صفوة ما سبق

تبين لك ممـا تقدّم أن المسلمين قد عُنوا فى جميع عصــورهم بكتابهم، عناية لم يشهد التاريخ مثلها فى كتاب ، وهذا تحقيق لوعد الله تعالى فى قوله لنبيــه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّـاسِ عَلَى

(١) تجد فى متحف دار الكتب الملكية من ذلك الشىء الكثير الجميل الثمين المكتوب فى عصور مختلفة .

مُكْثٍ[1] » . وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[2] ؛ ولأنه كما تقـدّم لك معجزةُ محمد الخالدة ؛ ولأنه يتضمن شريعـة هى آخر الشرائع الناسخةُ لكل شريعة قبلها . وحبـذا لو عُنينا مع ذلك بفهمه حق الفهم ، والعمل بكل ما فيـه . إذن لأصلح الله أحوالنا وجعل لنا من أمرنا يسرا . وفقنا الله تعالى لمـا فيه سعادتُنا فى الدنيا والآخرة .

---

(١) ١٠٦ — ١٧ الاسراء . (٢) ٩ — ١٥ الحجر .

بيان موجز لما اشتمل عليه القرآن من الأحوال الشخصية والشئون العمرانية

اشتمل القرآن الكريم على كثير من المبادئ والأحكام التى تنفع الناس فى أحوالهم الخاصة، وشئونهم العامة، والتى تكفُل النظام بينهم، وتوجد روح المحبة والمودة فى قلوبهم، وتؤدّى الى ارتقائهم وسعادتهم، ما تمسكوا بها ووقفوا عند حدودها، منها ما يتعلق بالبيوت والأُسر، ومنها ما يتعلق بالمعاملات العامة بين الناس بعضهم وبعض، ومنها يتعلق بالحكام مع المحكومين، فمن ذلك :

التسوية بين الرجال والنساء فى الحقوق

(١) أنه سوّى بين الأزواج وزوجاتهم، وجعل لهن مثل الذى عليهن من الحقوق، إلا فيما يقتضيه نظام الجماعات : من وجود رئيس يُرجع اليه فى الأمور، ويقوم بحماية أسرته والدفاع عنها، ويسعى فى كسب ما يسُد حاجتها ويُصلح من شئونها . قال الله

تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

اباحة تعدد الزوجات بشرط عدل

(٢) وأنه أباح تعدّد الزوجات للحاجة اليه ، وبخاصة بعد الحروب التي يهلك فيها كثير من الرجال ، فيبقى بعض النساء بلا كفيل ولا عائل ، وحاط إباحته بما يدفع ضرره من اشتراط العدل بين الزوجات . فان خاف الرجل أن يظلم إحداهن وجب عليه الاقتصار على واحدة . واللائق بشريعة هي آخر الشرائع أن تبيح ما تمس الحاجة اليه ، مع حياطته بما يمنع ضرره . قال الله تعالى في ذلك : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا »[2] . وقد شعر كثير من غير المسلمين بفائدة التعدد ، حتى وصفوه علاجا لبعض أدوائهم الاجتماعية ، لكن كثيرا من المسلمين لم يراع شرط الله تعالى فيه ، فكان منه شر عظيم ، والواجب الضرب على ايدى هؤلاء ، فلا يتزوجون بأكثر من واحدة .

(١) ٢٢٨ — ٢ البقرة . (٢) ٣ — ٤ النساء .

شرع الطلاق للتيسير

(٣) وأنه شرع الطلاق لكى لا يكون الزواج غُلا فى الأعناق، إذا لم يتفق الزوجان فى الطباع والأخلاق فقال تعالى : «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (١)» . ولكنه مع ذلك أرشد الى التحكيم بين الزوجين، حتى لا تنقطع رابطة الزوجية المتينةُ لأوهى الأسباب، وقد قال الله تعالى فى ذلك : «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٢)» .

وإنّ شرع الطلاق من التيسير فى الاسلام، اذا اتّبع فيه ما أمر به الله تعالى، وقد ودّ كثير من غير المسلمين لو شُرع عندهم، بل إن بعضهم قد شرعوه .

احترام الوالدين وغيرهم

(٤) وأنه وصّى باحترام الوالدين، والاحسان بهما والعطف على ذوى القربى واليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل، ورعاية حقوق الجار فى قوله تعالى : «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى

(١) ٢٢٩ — ٢ البقرة . (٢) ٣٥ — ٤ النساء .

الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ(1) وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ(2) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا(3) » .

نظام التوريث

(٥) وأنه جعل للتوريث نظاما عادلا ، روعى فيه قرب القرابة وبُعدها ، وقوتها وضعفها ، وجعل للذكر ضعف الأنثى اذا تساويا فى القرابة ؛ لما يجب على الرجل من الانفاق على نفسه وزوجته وأولاده وتربيتهم . وفى توريث الأولاد يقول : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ(4) » .

الوصية باليتامى

(٦) وأنه وصى باليتامى ، وأوجب المحافظة على أموالهم واصلاحها واستثمارها الى أن يبلغوا سن الرشد ؛ لئلا تسوء تربيتهم ويَشِبّوا مفسدين عيالا على غيرهم ، فقال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ(5) » . وقال تعالى : « وَآتُوا الْيَتَامَى

---

(١) البعيد . (٢) الصاحب الملازم . (٣) ٣٦ — ٤ النساء .
(٤) ١١ — ٤ النساء . (٥) ٢٢٠ - ٢ البقرة .

أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا(1) كَبِيرًا(2) » .

الحجر على السفهاء

(٧) وأنه نهى المسلمين عن أن يُطلقوا ايدىَ السفهاء فى الأموال التى هى قِوام الأمم : يبعثرونها ولا يحسنون التصرف فيها ، وجعل أموالهم أموالا للأمة جميعها، فاذا بدد السفيه ماله وأعطاه أهل الفساد، فكأنما بدد مال الأمة، خصوصا اذا تسرب الى أيد أجنبية؛ لذلك يجب رفع أمره الى الحكام؛ ليحجروا عليه ويعطوه منه بقدر حاجته، وفى هذا يقول تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا(3) » .

الحث على الاقتصاد

(٨) وأنه حث على التوسط والاعتدال فى الانفاق، ونهى عن التقتير والتبذير فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(4) » .

---

(١) ذنبا . (٢) ٢ — ٤ النساء . (٣) ٥ — ٤ النساء .
(٤) ٢٩ — ١٧ الاسراء .

النهى عن أكل أموال الناس بغير حق

(٩) وأنه نهى عن أكل أموال الناس بغير حق؛ لما فى ذلك من الاخلال بنظام المعاملات؛ ولما يترتب عليه من الخصومات والمنازعات، وذلك فى قوله تعالى: « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) (٢).

أدب الاستئذان

(١٠) وأنه علّم الناس أدب الاستئذان عند دخول بيوت غير بيوتهم؛ لما فى عدم الاستئذان من ازعاج أهلها، والاطّلاع على ما يكرهون اطلاع غيرهم عليه من أمورهم بقوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٣).

---

(١) تعطوهم إياهم رشوة. (٢) ١٨٨ — ٢ البقرة.

(٣) ٢٧ و ٢٨ — ٢٤ النور.

الحث على الاتحاد

(١١) وأنه حث على الاتحاد بنهيه عن التنازع الذى عاقبته الفشل والخيبة وذهاب القوة، فقال تعالى : «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»(١)

حفظ الأمانة والعدل فى الأحكام

(١٢) وأنه أمر بحفظ الأمانات وردِّها الى أهلها، وأوجب على الحكام اذا حكموا أن يتحرَّوا الحق ويحكموا بالعدل، فقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا »(٢) .

الشورى فى الأمور

(١٣) وأنه شرع الشورى (أساس الحكم الدستورى) فى الأمور العامة، حتى لا ينفرد حاكم بالرأى دون أهل الحل والعقد من العلماء والمفكرين من الأمة؛ لما فى الشورى من إصابة شاكلة(٣) الصواب فى أمور الناس ومصالحهم، فقال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

---

(١) ٤٦ — ٨ الأنفال . (٢) ٥٨ — ٤ النساء .

(٣) طريقة الصواب .

فِي الْأَمْرِ »[1] . وقال فى سياق مدح المؤمنين : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »[2] .

الوفاء بالعهود

(١٤) وأنه نبّـه على أن الوفاء بالعهد واجب ، سواء أتعلق بالمـال أم بغيره؛ لأن الغدر يزيل الطّمأنينة، وينزع من النفوس الثقة، وفى ذلك اختلالُ نظام المعاملات فقال تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»[3] . وقال عز وجل : « وَأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إِذَا عَاهَـدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »[4] .

الاستعداد للطوارئ

(١٥) وأنه نَوَّهَ بشأن القـوة، وأمر بالاستعداد والتأهُّب للطوارئ ، وبيّن أن ذلك يجعل الأمة مَهيبة مرهوبة الجانب ، وحث على الانفاق فى هذه السبيل، وهى سبيل الله تعالى وطريق نصرة دينه ، ووعد من أنفق أن يُوَفَّيَه جزاء ما أنفق، لا يُظْلم منه شيئا، وذلك فى قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

(١) ١٥٩ — ٣ آل عمران . (٢) ٣٨ — ٤٢ . الشورى .
(٣) ١ — ٥ المائدة . (٤) ٩١ — ١٦ النحل .

رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ »[1] .

ما تقدم قليل من كثير

هـذه نُبذة[2] موجزة تبيّن بعض ما تضمنه الكتاب الكريم من الأحكام الخاصة، وشؤون الاجتماع العامة. سقناها لك لتعرف أن القرآن الذى هو أساس الدين الاسلامى . قانون عام يكفُل سعادة الدنيا وصلاحَ أمر الناس فيها . كما يكفل سعادة الأخرى باجتناب ما نهى عنه من سيئات الأعمال وذميم الخصال . وبفعل ما أمر به من الأعمال الصالحة، والتحلى بما حث عليه من الأخلاق الكريمة .

وما قدّمناه قليل من كثير مما تضمنه هـذا الكتاب العزيز . وفقنا الله تعالى للتمسك بدينه والعمل بأحكام كتابه . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

(١) ٦٠ — ٨ الأنفال . (٢) بضم النون وفتحها .

مايحفظ من آى القرآن الكريم وتفسيره

تفسير الآيات التى فى المنهج

(١)

قال الله تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[(١)] » .

التفســـير

ما أنزل الينا — القرآن .

ما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط — صحف إبراهيم ، ونسب نزولها إلى إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط ؛ لأنهم كانوا يتعبدون بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها .

الأسباط — المراد بهم هنا أبناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم .

ما أوتى موسى وعيسى — التوراة والانجيل .

ما أوتى النبيون من ربهم — المعجزات .

(١) ١٣٦ البقرة .

كان اليهود يؤمنون بنبوّة موسى ، والنصارى يؤمنـون بنبوّة عيسى . ويستدلون على ذلك بظهور المعجزة على يد كل منهما .

ولمـا جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأتى بالمعجزة الخالدة وهى القرآن الكريم لم يؤمنوا به ، ولم يهتدوا بهديه ، فبين الله لهم فى هذه الآية أن صنيعهم هذا مخالف للعقل ؛ لمـا فيه من ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بدون مسوّغ ولا دليل .

كما بين لهم أن إيمانهم الذى زعموه لم يكن طاعة لله ورسوله ؛ وإنمـا كان انقيادا للميـل والهوى . وذلك لأن الايمـان الصحيح لا بد أن يشتمل على الأمور الآتية :

(١) التصديق بالله تعالى ؛ لأن التصديق به أصل الايمـان بالشرائع ، فمن لا يعرف الله استحال أن يعرف نبيا أو كتابا .

(٢) التصديق بالكتب المنزلة : كالقرآن الكريم ، وصحف ابراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى .

(٣) التصـديق بالمعجزات الباهرات ، والآيات البينات التى جاء بها الأنبياء والمرسلون .

(٤) التصديق بجميع الرســل وعدم التفريق بينهم؛ وذلك لأن ما أوتوه من أصول الدين واحد ، وما دعوا إليه الناس وهو الإيمان بالله واحد، فلا يؤمن الانسان ببعض الأنبياء ويكفر ببعض، كما يفعل اليهود والنصارى .

(٥) تسليم الأمر الى الله والأذعان له ؛ لأنه هو الخالق والناصر، وهو نعم المولى ونعم النصير .

(٢)

قال تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] .

التفســير

تضمنت هذه الآية الأمور الاتية :

(١) إباحة أكل الطيبات . (٢) ذكر بعض المحــرمات .

(٣) الترخيص بأكل بعض المحرمات .

(١) ١٧٢ ، ١٧٣ من البقرة »

(١) أباح الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا مما رزقهم، وأن يتحرّوا الحلال منه وأن يؤدّوا حقه ؛ وحقه هو شكر الله تعالى المنعم به ؛ لأن عبادته لا تتم إلا بشكره على نعمه .

(٢) ثم ذكر الله تعالى مما يحرم على المسلم تعاطيه أربعةَ أشـــياء :

أولها الميتة — وهى ما فارقتها الروح بغير ذبح شرعى . وحرمت لما فى الطباع السليمة من استقذارها ؛ ولما يتوقع من ضررها ؛ لأنها إما أن تكون قد ماتت بمرض سابق ، أو بعلة عارضة ، وكلاهما لا يؤمن ضرره ولا تحمد مغبته ؛ لأن المرض قد يكون معديا ، والموت الفجائى قد يقتضى بقاء بعض ما يضر فى الجسم (كالكربون) الذى يكون سببا فى الاختناق .

ثانيها الدم — وهو السائل الأحمر الذى يسيل من الجسم ، وحرم ؛ لأنه قذر ضار كالميتة ؛ ولأنه محل للجراثيم الفتاكة .

ثالثها لحم الخنزير — والخنزير هو الحيوان المعروف ويحرم على المسلم الانتفاع بجميع أجزائه ، وخص اللحم بالذكر لأنه المقصود بالأكل ، وحرم الخنزير لقذارته ولأنه محدث (للدودة الوحيدة)

وهى مرض فتاك . وقد ثبت ذلك بشهادة الأطبـاء و بالتجربة وهى أصدق شاهد .

الرابع ما أهل به لغير الله — أى ما ذكر غير اسمه تعالى عنـد ذبحه . حرم هذا؛ لأن الذى منّ علينا بالحيوان وأرشدنا الى الانتفاع به هو الله سبحانه وتعالى، فذكر اسم غيره عند ذبحه إشراك وهو من أعمال الوثنية .

(٣) وقد رخص الله تعالى للمضطر أن يتناول من هذه المحرمات بشرطين : أن يكون المتناوِل غير باغ ولا راغب فى هذه المحرمات . الثانى ألّا يكون عاديا أى غير متجاوز ما يسـد الرمق . ثم بين تعالى أن من فعل ذلك على هذه الشريطة فلا جُناح عليه، وذلك من فضـل الله على عباده و رحمته بخلقه، دفعا لاضطرارهم و إبقاء على حياتهم .

(٣)

قال تعالى : «لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ

السّبيلِ والسائلينَ وفى الرِّقَاب وأَقامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بِعَهْـدِهِمْ إذا عاهَدُوا والصّابِرِينَ فى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الذينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١) » .

التفسـير

المفـردات ــ البر ــ الطاعة والخير والتوسع فى الإحسان .

ابن السبيل ــ السبيل الطريق وابن السبيل هو المسافر .

الــرقاب ــ جمع رقبة والمراد الأرقاء . والبأساء : شدّة الفقر .

الضـــراء ــ كل مايضر كفقد محبـوب أو نزول مرض

البأس ــ شدّة الحرب .

المعنى ــ بينت هذه الآية الكريمة أصول الايمان والاعتقاد ، وأصول الأعمال الصالحة ، وأصول الأخلاق الفاضلة .

(١) أصول الايمان والاعتقاد .

أولهـا ــ الايمان بالله تعالى ، وأبتدئ به لأنه أساس كل برّ ، ومبدأ كل خير . كان بعض أهل الكتاب يرون أن البر إنمـا هو فى الصـلاة الى قبلتهم ، وأنها بدونها لا تقبل ، ولا يكون صاحبها

(١) ١٧٧ سورة البقرة .

على دين الأنبياء والمرســلين ، فأراد الله أن يبين للناس أن مجـرّد تولية الوجه قبلةً مخصوصة ليس هو البرَّ المقصود من الدين . وإنما البر يكون بما ذكر فى هذه الآية من الأيمان بالله تعالى الخ .

ولا يكون الايمــان أصلا للبر إلا إذا كان متمكنا من النفس مصحوبا بالخضوع والإذعان .

ومن علامات الايمــان الكامل أن يكون الله ورسوله أحب الى المؤمن من كل شيء، ويؤثر أمرهما على كل شيء .

ومنها أن تكون غيرته على الدين أشد من غيرته على نفسه وماله .

ومنها أنه إذا عرضت له دواعى الشر حال الايمــان دونها ، فاذا نسى وأصاب الذنب بادر الى التوبة والإنابة .

« والذينَ إذا فَعلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلّا اللهُ ولم يُصِرُّوا علىٰ مَا فَعَلُوا وهم يعلمونَ »(١) .

ثانيهــا — الايمان باليوم الآخر أى يوم القيامة .

(١) ١٣٥ سورة آل عمران .

وذلك أن يعلم الانسان أن له حياةً أخرى فى عالم آخر أرقى من هذا العالم، وحينئذ فلا يرضى أن يكون كل سعيه لأجل خدمة هذا الجسم خاصّةً، بل يلزمه أن يعمل أعمالا صالحة تطهر روحه وتجعله سعيدا فى حياته الأخرى . وأن من أنكر ذلك اليومَ الآخِرَ كان أكبر همه لذات الدنيا . وذلك أصل الشقاء فى الدنيا قبل شقاء الآخرة .

ثالثها — الايمان بالملائكة .

والسر فى الايمان بهم أنهم أصل للأيمان بالوحى؛ لأن منهم الروحَ الأمينَ الذى كان يفيض العلم على النبى صلى الله عليه وسلم بما هو موضوع الدين « نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِك لِتكونَ مِنَ المُنْذِرينَ بِلسانٍ عربىٍّ مُبينٍ »[1] .

فيلزم من إنكار الملائكة انكارُ الوحى والنبوّة، وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر .

رابعها — الايمان بالكتب السماوية .

وهى الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله : كالقرآن والتوراة والانجيل . فيجب علينا أن نعتقد أنها من عند الله تعالى، كما أنه

(١) ١٩٣ الى ١٩٥ سورة الشعراء .

يجب على كل مؤمن أن يعمل بما فى كتابه من الارشادات التى توصله الى سعادة الدنيا والآخرة .

وإن كثيرا ممن يدعون الايمان بالكتاب قد أعرضوا عن أمره ونهيه، وإن عملوا بشيء منه كانت أعمالهم رسوما خالية من روح التفكر واستحضار عظمة الله تعالى .

خامسها — الايمان بالنبيين .

وهذا يقتضى الاهتداء بهديهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم، ويتوقف ذلك على معرفة سيرهم والعلم بسننهم « لَقَدْ كانَ لَكُم فى رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرجُو اللهَ واليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » (١) .

(٢) أصول الأعمال الصالحة وهى ثمرة الايمان .

أولها — إعطاء المال على حب الانسان له، وهذا الاعطاء لا يشترط فيه مقدار معين، بل هو على حسب الاستطاعة، فمن كان لا يملك إلا رغيفا، ورأى مضطرا اليه وهو مستغن عنه، فلم يكن محتاجا اليه لنفسه أو لمن تجب عليه نفقته، وجب عليه بذله .

---

(١) ٢١ سورة الأحزاب .

ويعطى هذا المال للأصناف الآتية :

(١) لذوى القربى أى أقارب المعطى ؛ إذ من المغروز فى فطرة الانسان أن المرء يألم لفاقة ذوى رحمِهِ أكثر مما يألم لفاقة غيرهم ؛ فانه يهون بهوانهم ويعز بعزهم ؛ ولأنه إذا احتاج وفى أقاربه غنى فانه يتوجه اليهم بعاطفة الرحم ، ومن كان أقرب كان حقه آكد ، وصلته أفضل .

فمن رضى أن ينعم وأقاربه بائسون فهو برئ من الفطرة والدين ، بعيد من البر والخير .

(٢) لليتامى :

فانهم لموت كافلهم تتعلق كفالتهم وكفايتهم بأهل اليسار والمروءة ، حتى لا تسوء حالهم وتفسد تربيتهم ، ويكونوا مصابا على أنفسهم وعلى الناس .

(٣) للمساكين :

فانهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضا بالقليل ، وجبت على المستطيع مساعدتهم .

(٤) ابن السبيل :

وهو المنقطع فى السفر لا يتصــل بأهل ولا قرابة حتى كأن السبيل أبوه وأمه، ورحمه وأهله .

وفى الأمر بمواساته ترغيب من الشرع فى السياحة للعلم وغيره مما يفيد الأمم .

(٥) للسائلين :

وهم الذين تدفعهم الحاجة العارضة الى سؤال الناس . والسؤال محرم شرعا إلا لضرورة يجب على السائل ألّا يتعدّاها .

(٦) فى الرقاب .

أى إعطاء المـــال فى تحرير الرقاب وعتق الأرقاء وتخليصهـــم من غُل الرق . وهذا يشمل شراءالأرقاء وعتقهم ومساعدة الأسرى على الافتداء .

وفى جعل هذا النوع من البذل حقا واجبا فىأموال المسلمين دليلٌ على رغبة الشريعة فى عتق الرقيق ، واعتبارها أن الانسان خلق ليكون حرا إلا فى أحوال عارضـــة تقضى المصلحة العـــامة فيها أن يكون الأسير رقيقا .

ثانى الأعمال الصالحة : إقامة الصلاة .

وهى الركن الروحانىّ من أعمال البر ؛ وليس البر فيها أن يأتى بها الأنسان تامة الشروط والأركان فقط ؛ بل البر فى روحها التى تصدر عنها آثارها : كالنهى عن الفحشاء والمنكرات . واستئصال الأخلاق الذميمة ، والتحلى بالصفات الحميدة .

وإن مراقبة الله تعالى واستشعار عظمته وسلطانه الأعلى فى الركوع والسجود يزيد فى الثقة به تعالى ، والاعتماد عليه والرضا بكل ما يقضيه ، فلا يبالى الانسان ما لقى من الشدائد فى سبيله ، وما أنفق من ماله فى ابتغاء مرضاته تعالى .

ثالثها — إيتاء الزكاة :

قلما تذكر الصلاة فى القرآن الكريم إلا ويقرن بها إيتاء الزكاة ؛ وذلك لأن الصلاة مهذبة للروح ، والمال (كما يقولون) قرين الروح ، فبذله فى سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر ، وآية من أظهر آيات الايمان ، وبها صلاح العمران ، ولذلك حارب الصحابة رضوان الله عليهم ما نعى الزكاة بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

(٣) أصول الأخلاق .

أولهـا ـــ الوفاء بالعهد .

العهد التزام تطوعت به لا سبيل لك الى البراءة منه إلا بالوفاء به . والعهد الذى يجب الوفاء به هو العهد الذى يلتئم هو والمصلحة ولا يكون مخالفا لأوامر الله تعالى .

والوفاء بالعهد من البر لأنه يترتب عليه نظام المعيشة ، كما أن الغدر والإخلافّ من الأمور الهادمة للنظام المفسدة للعمران .

وما فقدت أمة الوفاء الذى هو ركن الأمانة وقوام الصــدق إلا حل بها العقاب الإلهى .

ثانيهـا ـــ الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس .

الصبر حبس النفس على احتمال المكاره . وهو محمود فى المواطن كلها ؛ وإنمـا خصت هذه بالذكر لأن من صبر فيها كان فى غيرها أصبر ؛ لمـا فيها من المشقة الشـــديدة على النفس ؛ فان الفقر إذا اشــتدّت وطأته ضــاق به الذرع ؛ والضراء اذا برّحت بالبــدن تضعف الأخلاق ، حتى يكاد المرء لا يحتمل ما كان يسر به فى حال الصحة . وأما حالة اشتداد الحرب فانهـا على ما فيها من التعرّض

للهلكة يطلب لها من الصبر ما لا يطلب فى غيرها ؛ لأن الصبر مقرون بالظفر . وانظر بعد هذا قوله تعالى فى ختام الآية :

« أُولئِكَ هُمُ الذينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ » فانه حكم لهؤلاء الذين يقيمون كل أركان البر بأنهم هم الصادقون فى إيمانهم ، وبأنهم هم الذين اتقوا ربهم فقاموا بما وجب عليهم .

(٤)

قال الله تعالى « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (١) » .

التفسـير

المفردات : الجـار ذو القربى : الجار القريب أو المسلم . الجار الجنب : الجـار البعيد أو غير المسلم . الصاحب بالجنب : الرفيق فى السفر أو فى العمل أو فى التعليم . مختـالا : هو المتكبر الذى يظهر كبره فى حركاته كمشيته . فخورا : هو المتكبر الذى يظهر كبره فى قوله بِعَدّ فضائل نفسه .

(١) ٣٦ — ٤ النساء .

المعنى : أمر الله عباده أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئا ؛ لأنه وحده الخالق الرازق القادر على الضر والنفع ، وما سواه مخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يشفع .

وعبادة الله تعالى هى نهاية الخضوع له وتمكين هيبته من النفس وعظمته من القلب ، حتى تصلح أعمال الانسان وتكون جارية على نهج الشريعة المطهرة من الطاعات وترك المعاصى .

ثم قرن عز وجل الأمر بعبادته بطلب الاحسان بأصناف من الناس .

الأوّل ـــ الوالدان وهما أقرب الناس الى الولد وأحقهم ببره وعطفه ، لأنهما السبب فى وجوده وقد قاما بتربيته ، وتهذيبه وتثقيفه ، وقد عانى كل منهما فى ذلك كثيرا من المشاق والمتاعب خصوصا الأم .

فقد قاست فى حمله ووضعه وإرضاعه والعناية به والسهر عليه ما يصغر أمامه كل بر ويتضاءل كل احسان .

والاحسان بهما أن تطيعهما وتعظمها وتقوم بكل ما يلزمهما مع الاخلاص فى ذلك والارتياح اليه .

الثانى — الأقارب . وهم أقرب الناس الى الشخص بعد الوالدين، يقوى بقوتهم، ويعتز بعزهم، ويشرف بشرفهم، اذا استعانهم أعانوه، وإذا ناداهم فى الملمات أجابوه ، وإذن فيجب الاحسان فى معاملتهم بمحبتهم وصلتهم ومساعدتهم .

الثالث — اليتامى . واليتيم كل صغير فقد أباه وهو عائله وكافله ومربيه، فاذا لم يجد من يُحسن به ويكفله ويقوم بحاجاته وتربيته نشأ سيء الأخلاق غير مهذب، فيكون شره على من يعاشره وعلى غيرهم عظيما .

الرابع — المساكين . وهم الذين لا يجدون ما ينفقون والذين لا يجدون ما يكفيهم، وهؤلاء يجب على الأغنياء أن يعطفوا عليهم ويساعدوهم وإلا كان شرهم على العباد والبلاد مستطيرا . وإنما يساعَد المسكين بالمال إذا لم يهمل العمل ولم يُخلد الى البطالة والكسل، بل كان لا يستطيع العمل أو لا يجده أو كان عمله لا يفى بحاجاته .

أما من أهمل العمل وآثر البطالة، فانه لا يساعد بالمال بل يساعد بنصحه وتوجيه نفسه الى عمل يعيش منه .

(الخامس) الجار . والاحسان بالجـار واجب سواء أ كان قريبا أم بعيدا مسلما أم غير مسلم؛ لأنه أقرب الناس اليك بعـد أقاربك، بل قد يكون أقرب اليك وقت الشدّة من أقاربك، فيجب أن تحسن به : فلا تؤذيه فى ماله أو نفسه، وتشاركه فى سرائه وتساعده فى ضرائه .

(السادس) الصـاحب بالجنب . وهو الرفيق فى المدرسـة أوالعمل أوالسفر، فيجب على الزملاء فى التعليم، والشركاء فى العمل، والرفقاء فى السفر، أن يحسن كل معاملة الآخرين، ويعاونهم على ما فيه خيرهم ولا يؤذيهم بيده ولا باسانه؛ وذلك أنهم مشـتركون فى أمور متعبة شاقة، فلايضيف الى متاعبهم سوء معاملته لهم .

(السابع) ابن السبيل . وهو الطفل اللقيط الذى لا يعـرف إلا من الطريق، وهو أولى بالاحسان والعناية والرعاية من اليتيم؛ لأن هـذا قد يكون له أهل يتولّون شؤونه، أما اللقيط فهو مجهول لا يعرف له أحد يقوم بأمره ولا يعنى بشأنه .

أو ابن السبيل هو المسافر الذى انقطع عن أهله ونفِد ما كان معه، فيجب على الموسرين أن يمدوه بمـا يوصله الى وطنه حتى

لا يزداد كربه على غربته، أو يتخع نفسه لعُدْمه، أو تحمله الفاقة على النهب والسلب .

(الثامن) الرقيق . الذى ملكته الأيدى والاحسان به واجب؛ لأنه انسان يحس و يتألم فلا يضم له الى ذل الرق الشقاءُ بسوء المعاملة، فيجب على مالكه أن يُطعمه مما يَطعم، ويُلبسه مما يَلبس، وألا يرهقه بالعمل، ولا يكلفه ما لا يطيقه .

وقد أكد الدين الاسلامى الوصية بالرقيق، وحث على حسن معاملته فى كثير من آى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وسترى الكلام فى الرق مفصلا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » . الاختيال والفخر مظهران من مظاهر الكبر، والكبر يؤدّى إلى التقصير فى الحقوق .

فالمعنى أن المتكبر المختال الفخور هو الذى يقصر فى حقوق الله تعالى ويَغمط حقوق الوالدين وغيرهما .

لهذا لا يحبه الله بل يكرهه و ينتقم منه .

وذلك أن المتكبر يتوهم أنه استأثر بفضائل ليست إلا فيه ، ومحامد لم تخلق إلا له ، فيختال فى حركاته ، فاذا مشى ترنح وتمايل : ورفع رأسه ، وشمخ بأنفه ، وراح يفخر على الناس بما تخيل أنه محمدة له ، وتوهم أنه فضيلة فيه ؛ وتعالى عليهم حتى لا يرى أن أحدا يدانيـــه .

هـذا المتكبر المتغطرس يرى أن له على النـاس حقوقا فى حين أنه لا يعرف لغيره حقا ، فهو لا يؤدى حقوق الله تعالى : لأن كبره يأبى عليـه الخشوع لعظمته وجلاله ، ولا يؤدّى حقوق والديه ولا غيرهما ؛ لأنه لا يبالى حق أحد بل لا يعرف لأحد حقا .

لذلك توعده الله بقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » لأن من لا يحبه الله لسوء أخلاقه وأعماله عذبه وانتقم منه .

نسأله تعالى أن يرزقنا التواضع حتى نؤدّى حقوق الله تعالى ، وحقوق الناس فننال ثوابه ورضوانه .

(٥)

قال الله تعـالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَـدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا

أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[1] » .

التفسير

قوّام صيغة مبالغة ومعناه كثير القيام . القسط : العدل . الهوى : ميل النفس . تلووا : تُحرِّفوا . تعرضوا : تتركوا .

والمعنى : كونوا أيها المؤمنون مواظبين على العدل فى جميع الأمور، مجتهدين فيه كل الاجتهاد، لا يصرفكم عنه صارف، تؤدّون شهاداتكم لوجه الله تعالى كما أُمِرْتم بإقامتها، لا لغرض دنيوى، ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو والديكم أو أقربِ الناس اليكم . كما أنه يلزمكم ألّا تُغيّروا فيها شفقة على أنفسكم أو خوفا على أقاربكم، إن يكن المشهود عليه غنيا ترجونه وتخافونه، أو فقيرا يستحق الرحمة والعطف، فلا يسوغ لكم أن تمتنعوا عن الشهادة طلبا لرضا الغنى، أو شفقة على الفقير؛ لأن الله تعالى أولى بالنظر اليهما من سائر الناس، ولولا أن فى الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها . فلا تتبعوا هوى أنفسكم وميلها كراهةَ العدلِ بين الناس . وإنْ

(١) ١٣٥ النساء .

تحرفوا الشهادة أو تتركوا اقامتها فان الله كان بمـا تعملون خبـيرا عالمـا مطلعا عليكم فيجازيكم على عملكم .

(٦)

قال الله تعالى : « يَأَيُّهَـا الذِينَ آمنوا إِنَّمـا الخمـرُ والمَيْسِرُ والأَنصابُ والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجتَنِبوهُ لعلَّكُمْ تُفْلِحونَ . إِنَّمـا يُرِيدُ الشَّيطانُ أَنْ يُوقِعَ بينَكُمُ العَـداوةَ والبَغْضاءَ فى الخمرِ والمَيْسِرِ ويَصُـدَّكُمْ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ فهـلْ أَنتُمْ مُنتَهونَ »[1] .

التفســـير

الخمـــر — كُلُّ مسكر سواء أكان من عصير العنب أم من نبيذ التمر أم من الحنطة أم من الشعير أم من غير ذلك . وفى الحديث: « كُلُّ مُسكِرٍ خمرٌ وكُلُّ خمرٍ حرامٌ» .

المَيْسِرُ — القِمار . وكل أنواعه محرّمة إلا ما أباحه الشرع من الرِّهان فى السباق والرماية ترغيبا فيهما .

(١) ٩٠ — ٩١ المائدة .

والأنصاب — أصنام من حجارة كانت تُنصب أى تقام حول الكعبة وتُعبد من دون الله .

والأزلام — هى القِداح التى كانوا يَستقسِمون بها .

رِجس — قذر تأباه العقول الراقية وتعافه النفوس الطاهرة .

من عمل الشيطان — من تحسينه وتزيينه .

هذه الأمور الأربعة المذكورة فى الآية : وهى الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام ، أعمال قبيحة ، يُحسّنها الشيطان للناس ولا يرضى الله بها ، بل يعاقب عليها ، ويأمر عباده بتركها لينجوا دنيا وأخرى .

أما الخمر والميسر فقد بين الله علة النهى عنهما فقال : « إنما يريد الشيطان أن يُوقِع بينكم العداوةَ والبغضاءَ فى الخمر والميسر » أى بسبب تعاطيهما « ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة » أى يمنعكم ويصرفكم عن عبادته سبحانه وتعالى ؛ واذا كان هذا شأنهما فيجب أن تنتهوا عنهما ولا تقربوهما .

وأما عبادة الأصنام فهى إشراك بالله تعالى وهو الذنب العظيم الذى لا يُغفر « إن اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء » .

وأما الاستسقام بالأزلام فطلب للغيب الذى اختص الله به، وتعطيل للفكر أن يؤدّىَ عملَه وفى ذلك الضرر العظم .

مضـار الخمـــر

الخمر متلفة للجسم، مفســدة للعقل، مذهبة للــال، مغضبة للرب، جالبة للعداوة والبغضاء .

اتفق الأطباء على أن الخمر تؤثر فى الكُلى فتتلفها، وفى الكبد فتضرها . وفى المعــدة فتضعفها، وقال بعضهم : أقفلوا لى نصف الحانات، أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات .

ومن مضار الخمر إفشاء السر،وناهيك بما ينشأ عنه من المضار، ولا سيما السر الذى يتعلق بالحكومات أو بالأمور العظيمة .

ومنها الاحتقار وذهاب الهيبة والوقار من أعين النــاس؛ فان السـكران يكون فى هيئتــه وكلامه وحركاته بحيث يضحك منه، ويستخف به كُلُّ من يراه حتى الصبيان .

ولقد حرم أناس الخمر فى الجاهلية على أنفسهم، منهم العباس ابن مرداس،قيل له : ألا تشرب الخمر؟ قال ما أنا بآخذ الجهل بيدى فأدخله فى جوفى،ولا أرضى أن أكون سيدا لقوم وأمسى سفيههم.

ولقد ألفت جمعيات فى مصر وفى أوربة وأمريكا للسعى فى إبطال المسكرات ، فتعاهدوا على عدم شربها، وعلى الدعوة الى ذلك، والسعى لدى الحكومات فى التشديد على بائعيها .

أحس الشعب الأمريكى بالولايات المتحدة مضار تعاطى الخمور فى صحتهم وأموالهم وأخلاقهم ، فهب للخلاص من مضارها، والقضاء على نتائجها السيئة، فلم يختر من المرشحين للنيابة عنه إلا من يناصر رأيه ويعمل على تأييده، وقد نجح بهذه الوسيلة فكان أكثرُ مجلس النواب ممن يدين برأيه ويتألم لألمه .

وقد أقر هذا المجلس تشريعا يقضى بعدم تعاطى الخمر أو الاتجار فيها أو استيرادها، وجعل عقوبة رادعة لمن يخالف ذلك ، وكان من نتائج هذا أن تحسن حال الشعب تحسنا ظاهرا، وبخاصة العمال الذين كانت قد ساءت حالتهم، واضمحلت أجسامهم ، وفسدت أخلاقهم .

وإن بعض دول أوربة لتنظر بعين الارتياح الى هذا التشريع الأمريكى، وتترقب نتائجه لتنسج على منواله .

وكلما تقدمت الأمم وارتقت أيدت ما جاء به القرآن الكريم .

مضـار القمار

القمار أن تغالب شخصا على مال فان غلبته أخذته منه ، و إن غلبك أخذه منك ، وهو محرّم حتى اللعب بالجوز واللوز وما شاكلهما ؛ لأنه يورث العـداوة والبغضاء بين اللاعبين ؛ ولأنه أكل لأموال الناس بالباطل وسبب للفقر والخراب .

كم خرب القمار من بيوت ، وأوقع ذوى اليسار فى عسر ممقوت ، وكم أفسد أخلاق الشبان ، وحط منزلة الشيوخ ، وسبب فضيحة البيوت ، وقضى على مسـتقبل أُسَر نشأت فى الترف والعــز ، وانحصرت ثروتها فى جمــاعة أضاعوها فى ليلة أو ليال ، فأمست لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعوّدته من الرفاهية وحسن الحال .

القمار يفسد التربيــة ، ويلهى عن العمل ، ويعوّد النفسَ الكسلَ ، وانتظار الربح من الطرق الوهمية .

يتوهم المقامر أنه يكسب بقرشه جنيها ، ويبنى على وهمه الفاسد بناء شامخا ، فلا يلبث أن يتبين له خطؤه ، حيث يفرّ منه درهمه وديناره ، ولا يستطيع الى ردهما سبيلا .

انتهى الأمر بكثير من المقامرين الى الرضا بعيش الذل والمهانة ، بل الى قتل أنفسهم حزنا وغما .

فالعاقل يمتثل أمر الله تعالى ويبتعد عن القمار وعن مشاهدته، ولا يقرب له مجلسا حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل؛ «فمَنْ حام حول الحِمَى أَوْشَكَ أن يقع فيه» .

كيفية الاستقسام بالأزلام

كان من عادة العرب أنهم اذا أرادوا سفرا أو نحوه ، أجالوا عند أصنامهم ثلاثةَ قِداح، قد كتب على أحدها (افعل)؛ وعلى الثانى (لا تفعل)؛ والثالث غُفْل (لم يكتب عليه شىء)؛ فاذا خرج الأوّل أقدموا على العمل ، وإن خرج الثانى أحجموا عنه ، وان خرج الغفل أعادوا الاستقسام .

كيفية القمار عند العرب

كان لهم عشرةُ قِداح يقال لها الأقلام ، وأسماؤها : الفَذّ، والتوءم ، والرقيب ، والحِلْس ، والنافس ، والمُسبِل ، والمعلَّى ، والوغد ، والسَّفِيح ، والمَنِيح ، ولكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونه ويجزئونه ثمانية وعشرين جزءا : فللفذ سهم ، وللتوءم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة ، وهو أعلاها وليس للثلاثة الأخيرة شىء . فاذا أردوا الميسر اشتروا ناقة نسيئةً ونحروها

وقسموها، ووضعوا القداح فى خريطة، ثم يُجيلها[1] عدل، ويدخل يده فيخرج منها واحدا باسم رجل منهم، ثم باسم آخر وهكذا . فمن خرجت لهم القداح ذوات الأنصباء أخذوا نصيبهم، ومن خرجت لهم القداح التى لا نصيب لها لم يأخذوا شيئا وغرموا ثمن الجزور كلّه . والغالب أنهم كانوا يدفعون تلك الأنصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها، ويعدون ذلك فخرا .

(٧)

قال الله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »[2] .

التفسير

تضمنت هذه الآية الأمور الآتية :

(١) تسليةَ الرسول وتهديدَ مخالفيه .

---

(١) أى يديرها ليختلط بعضها ببعض بحيث لا يعرف الرابح من غيره .

(٢) سورة الأنعام .

أرسل الله رسوله محمدا بالهدى ودين الحق فخالفه قومه ، ولم يمتثلوا أمره ، وعارضوه وكذبوه ، فحذرهم الله عاقبة عملهم والاغترارَ بما نالوه فى الدنيا من طيباتها ، ووصلوا اليه من لذاتها وشهواتها ، وأمرهم أن يسيروا فى الأرض ليعرفوا صحة ما أخبرهم به رسولهم من نزول العذاب على من كذبوا بآيات ربهم ، وسيرون بيوتهم خاوية ، وبلادهم خالية ، فيكمل لهم الاعتبار ، ويتم لديهم الاستبصار ، فيرجعوا الى ربهم ويصدّقوا نبيهم .

(٢) كمالَ إلهيته وقدرته :

ان الله تعالى مالك الملك يتصرف فيه على وفق إرادته ، ليس له فيه شريك ولا منازع ولا مخالف ولا معارض ، وان الأمكنة وما فيها : وهى السموات والأرض ، والأزمنة وما فيها : وهى الليل والنهار ، كلها مملوكة له خاضعة لأمره ، فلا مفر لكم من عقابه ، ولا منجى من عذابه ، وهو السميع لما تقولون ، العليم بما تضمرون .

(٣) كمالَ احسانه ورحمته .

فمن رحمته تعالى أنْ أرسل الرسل مبشرين ومنذرين « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ومن رحمتــه ارجاء العقوبة ليفكر المذنب ويرجع الى ربه «ولو يؤاخذ الله الناس بمـا كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة» .

ومن رحمته جمع النـاس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم ، ولا شـك أن من عرف أنه محاسب على عمله الدنيوى حاول أن يجعله مرضيا ، وبذلك ينال رضوان الله تعالى وثوابه .

بعد هذا كله يبّن أنّ من أعرض عن اتباع رسوله ، والاهتداء بآياته ، فأولئك هم الذين خسروا عقولهم ، واستحقوا غضب ربهم .

(٨)

قال الله تعـالى : « وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[1] .

التفســـير

المفردات : جنات بساتين . معروشات : الجنة المعروشـة ما لهـا عريش ، والعريش سقف ذو دعائم يحمل الأشجار المتسلقة كالكروم . اكله : ثمره . حصاده : قطعه وجنيه .

(١) ١٤١ الأنعام .

المعنى : يبين الله تعالى فى هذه الآية بعض آثار قدرته الدالة على عظمته وبديع صنعته، ويذكر شيئا من نعمه على خلقه، فهو عز وجل الذى أنشأ الجنات ذوات الأشجار المختلفة، فمنها ما يحتاج الى عرائش يمتد ويتبسط عليها كأشجار العنب . ومنها ما يقوم على سوقه . وأوجد النخيل والزرع وجعل ما تنتجه مختلفا فى شكله ولونه وطعمه . وأنبت الزيتون والرمان يتشابه شجرهما ولا يتشابه ثمرهما . ثم أباح لنا هذه الطيبات تفضلا منه وإحسانا، نأكل منها وننتفع بها، وأمرنا أن نتصدّق منها شكرا لله تعالى على ما أنعم علينا فى غير إسراف فى الأكل ولا فى البذل « إنه لا يحب المسرفين » .

(٩)

قال الله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[1] » .

التفســـــير

المفردات — لِوَلِيِّه : لمن يتولى أمره وهو الوارث أو الحاكم إن لم يكن له وارث . سلطانا : تسلطا وسيطرة على القاتل . فلا يُسْرِف : لا يتجاوز الحدّ المشروع . أَشُــدَّه : الأشد كمال القوى العقلية والحسية . القسطاس : الميزان . تأويلا : مآلا وعاقبة لا تقف : لا تتبع . مرحا : تكبرا وخيــلاء . تخرق الأرض : تثقبها الى الجهة الأخرى بقدميك .

قتل نفس بمنزلة قتل سائر النفوس،واحترامها كاحترامهم

المعنى — من البيّن الواضح أن التعــدى بقتــل نفس واحدة هو كالتعــدى على سائر النفوس ؛ كما أن احترام نفس واحدة هو كاحترام سائر النفوس ،وزيادة فى توضيح ذلك نقول : إن القتل عمدا وعدوانا لا يصــدر إلا من انسان تغلب على نفسه رذيلة الغضب والخبث والمقاصد المحرّمة ، فرجّح الشر على الخير ، وفضّل المعصــية على الطاعة ، واستباح لنفســه ما حظــره الله تعــالى ،

(١) من ٣٣ — ٣٧ الاسراء .

وحظره العقل السليم ؛ ومتى كانت هذه الأسباب قد تأصلت فى نفس هذا القاتل ، فاستباح قتل نفس ظلما ، فانه يجوز عليه أن يستبيح قتل كل نفس ؛ لأن جميع النفوس الانسانية متساوية فى وجوب احترامها وإكرامها وحفظ حياتها .

وعكس ذلك يقال فيمن احترم نفسا وحفظ عليها حياتها ؛ فان تأصَّل الفضيلة فى نفسه يحمله على أن يُرجِّح الخير على الشر ، ويقف عند الحدود التى شرعها الله عز وجل ، ورضَيتْ عنها الفطرة الانسانية .

مأخذ ذلك من القرآن الكريم

فيكون هذا الترجيح منه بالنسبة الى نفس واحدة ترجيحا بالنسبة الى النفوس وذلك كما قال الله تعالى : « مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا . وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (١) » .

معنى النفس التى يحرم قتلها الا بالحق

فلهذه الحكم البالغة . التى تقوم عليها مصالح هذا الكون وما فيه ، نهى الله العليم الحكيم عن قتل النفس التى حرم سبحانه قتلها ، فان كانت مسلمة عصمها الاسلام واحترمها ، وان كانت

(١) ٣٢ — ٥ المائدة .

غير مسلمة فان العهد الذى بيننا و بينها قد عصمها وأوجب علينا صيانتها . وحفظَ حَياتها ومعاملَتها كالنفس المسلمة .

فهذه النفس لا يجوز لاحد ما أن يقتلها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، كأن يقتل انسان انسانا آخر ظلما أو عمدا عدوانا، فان ذلك القاتل الظالم يُقْتَلُ قصاصا جزاءًا وِفَاقًا .

شرع الله الحَكَمُ العدلُ القصاصَ من القاتل الظالم . وجعله حقا ثابتا لولىّ المقتول المظلوم يطالب به و يستوفيه الحاكم . وليس لأحد أن يحول بين الولى و بين المطالبة بالقصاص واستيفائه .

لا يتجاوز الحدّ المشروع فى القصاص

ولكن لا يجوز للولىّ أن يُسْرِف فى أمر القتل : بأن يتجاوز الحدّ المشروع : كأن يقتل القاتل و يمثِّل به[1]، وكأن يقتل غير القاتل من أقاربه، وكأن يقتل اثنين بدل واحد كما يفعله الجاهلون .

حكمة النهى عن الاسراف فى القصاص

ثم إنه سبحانه . أرشد الناس الى سر هــذا النهى وعرّفهم حكمته . وهى أنه تعــالى قد نصر ولى المقتول فقال : « إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » فأثبت له حق التسلط والسيطرة على القاتل، وأوجب له القصاص منه، وأمر الحُكّام أن يُعينُوه فى استيفائه، فلا يجوز

(١) بأن يقطع أعضاءه ويشوه جسمه .

له بعد هذا أن يبغى غير حقه ولا أن يستزيد عليه، ولا أن يتخطى الحدّ الذى رسمه الله الذى هو ناصره .

(٢) ثم نهى الله (العليم بمصالح العباد) عن إتلاف الأموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم . فقال : « ولا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » الآية .

النهى عن القرب من الشىء نهى عن فعله بالأولى

نهى سبحانه عن قربان مال اليتيم للمبالغة وزيادة التحذير والتعرّض له والتصرف فيه؛ فان القرب من الشىء يُفضى عادة الى الوقوع فى هذا الشىء : كمن ينهى ولده عن القرب من مواطن اللهو؛ لأن القرب منها يُهَوِّن عليه الدخول فيها مرة ما، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يكون بها من المُغْرَمين .

نهى الله تعالى عن التصرف فى مال اليتيم بأى طريقة من طرائق التصرف الا بالطريقة التى هى أحسن طرائقه : وهى حفظه وصيانتُه واستثماره وانماؤه على الوجه المشروع الذى أحله الله تعالى حتى يبلغ ذلك اليتيم صاحبُ المال أشُدَّهُ . ويصل الى تمام عقله ومداركه، وكمال قواه البدنية، وتظهر فيه أمارات الفطنة والرشد ، وتتوسم فيه علامات الانتباه والتمييز بين النافع

والضار، والحرص على ماله، والخوف عليه من الضياع أو الانفاق فيما لا يُجْدِيهِ نفعا : وحينئذ يُدفَعُ اليه ماله، يتصرف فيه بوجوه التصرف، ويَستقِلُّ وحده بحفظه وانمائه، والله بعد ذلك يتولاه بتوفيقه وتسديده، وهو نعم الوكيل . !

تذكير الأوصياء بالعهد

أذن الله جل شأؤه للناس أن يتصرفوا فى مال اليتيم بالتى هى أحسن، ثم عاد فذكَّرهم بذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم والتزموه : وهم أنهم يحفظون مال اليتيم ويصونونه ولا يفعلون الا ما فيه نماؤه ومصلحته . وذلك قوله تعالى : «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» .

معنى أن الناس مسئولون عن العهد

ثم إنه تعالى حذّرهم نَكْثَ العهد والإخلال بإيفائه فقال : « اِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » .

وذلك أنه سبحانه جعل الحُكام مشرفين رُقباء على الأوصياء القوّام على أموال اليتامى : يسألونهم ويحاسبونهم، لِمَ صرفتم أموال الأيتام؟ وفِيمَ صرفتموها؟ وكيف كان ذلك؟ فاذا رأوْا أن تصرفهم محمود حَمِدوهم، وان رأوْا غير ذلك عاملوهم بحكم الله فى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما « ثُمَّ رُدُّوا اِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ»[1] . «فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[2] .

(١) ٦٢ — ٦ الأنعام . (٢) ٦ — ٥٨ المجادلة .

وجوب ايفاء الكيل والوزن وسبب ذلك

(٣) ثم أمر الله عز وجل بقوله : « وَأَوْفُوا الكَيْلَ » الآية بإيفاء الكيل فيما يكال ، وبإيفاء الوزن فيما يوزن؛ لأن عدم الايفاء فيهما من قبيل اتلاف المال واضاعته على الشخص الذى لأجله الكيلُ والوزن ، وأيضا هو خيانة ، ونكْث للعهد الذى تقتضيه المبادلة بين البائع والمشترى مثلا ؛ وقد عرفت أن الله تعالى يقول : « إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولَا » .

حكمة وجوب الايفاء

ثم إنه سبحانه أرشد الناس الى الحكمة الالهية التى لأجلها أوجب الايفاءَ فى الكيل والوزن ، فأخبرهم أن ذلك لأمرين جليلين :

(الأول) أن ايفاءهما خير ، أى وصف حميد محبوب ، يرغبه العقلاء أهل الفضل كافة .

(الثانى) أنه أحسن تأويلا ، وأحمد مآلا ، وأطيب عاقبةً فى الدنيا وفى الآخرة .

ثمرة ذلك فى الدنيا

أما فى الدنيا : فانه يكسب صاحبه الشهرة بين الناس بالأمانة وايتاءِ كل ذى حق حقَّه ، ولا ريب أن ذلك يجعل له الذكر الجميل ، والثناء المحمود بين الناس ، ويوجب الرغبة الصادقة

فى معاملتــه ، ولا يخفى عليك ما يعود عليه بعــد ذلك من الرواج والفوائد الجليلة .

أضف الى هذه الفوائد الخاصة التى تعود عليــه تلك الفائدةَ العامةَ التى تعود على الناس : وهى اتخاذهم له قدوة يقتدون به ، وجعله إماما لهم يأْتَمُّون به فى هذا الفعل الحسن الجميل؛ لِيَرُوجُوا كما راج ، ويستفيدوا كما استفاد .

ثمرته فى الآخرة

وأما فى الآخرة التى هى خير وأبقى . فانه يكون مرضيا عنــه من الله تعالى الذى وصف نفسه بأنه ذو الفضــل العظيم . وأن عنده للطيعين حسن الثواب .

إصلاح اللسان والقلب

(٤) أرشــد الله عز اسمه العباد فى الآيات السابقــة إلى إصلاح طائفة من أعمــال الأعضاء والجوارح الحسية، ثم أردف ذلك بارشادهم إلى إصلاح أعمــال اللسان والقلب فقال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » الآية .

النهى عن القول والعمل بغير علم

نهى سبحانه كل عبد من عباده أن يَتَّبِع مالا يعلم : بأن يقول مالا يكون فى قوله على معرفة ، أو يعمل مالا يكون فى عمله على بينة ؛ لأن من يقول مالا يعرف ، أو يعمل مالا يعلم ، يكون

كمن يسلُك مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصـده ؛ فان كلا منهما يمضى فيما هو فيـه على غير علم ولا هدى : فلا يصـل إلى ما يريد .

إن القول بدون علم ، والعمل بغـير بينة ، لا فرق فيهما بين أن يصدرا من صاحبهما عن عمد منه ، و بين أن يصدرا عن غير عمد ؛ لأنهما يستتبعان آثارا سيئة ذميمة على أى حال صدرا .

كثرة مخالفة النهى لهذا النهى وآثار ذلك السيئة

كثيرا ما خالف الناس ربهم سـبحانه فى نهيه لهم عن اقتفاء ما ليس لهم به علم ، فقالوا ما قالوا وهم لا يعلمون، وعملوا ماعملوا وهم لا يستيقنون ، ويا ليتهم فعلوا ما فعلوا وهم لا يبتغون به شرا ، ولا يريدون سوءا ولا ضرا ، بل طالما قالوا أقوالا بَنَوْها على أكاذيب سمعوها ولم يتبينوا صدقها، وكثيرا ما فعلوا أفعالا رتّبوها على أباطيل بَلَغَتْهُم من قوم سوء . ولم يتثبتوا من صحتها .

ولقـد عاد على الناس من جَرَّاء هذه الأقوال والأعمال التى لم يكن مصدرها العلم والمعرفة، بل الأكاذيب والأباطيل والأوهام ، أضرارًا جَمَّةٌ، ومصائبُ مُنَوَّعةٌ ، وفساد كبير، فى دينهم وعقائدهم، وأخلاقهم وعاداتهم ، وسائر ما يرتبط بحياتهم الاجتماعية .

الارشاد إلى طرق العلم الصحيح مع التحذير من مخالفتها

ثم إنه تعالى بعد أن نهاهم عن اقتفاء مالا يعلمون . أردفه بإرشادهم إلى طرق العلم الصحيح مع تحـذيرهم عواقبَ الإخلال بها ، و إنذارهم سوءَ الإعراض عن سلوكها . فقال : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » .

فمن قال : إنه سمع كذا مع أنه لم يسمعه : كشاهـد الزور أمام القضاء مثلا ، وكمن يقول أبصرت كذا والحال أنه لم يبصره : كالذى يدّعى أنه رأى بعينه هلال أوّل رمضان مثلا ، وكمن يعمل عملا لم يستند فيه على أساس صحيح : كمن يعادى إنسانا مثلا بناء على وشاية لم يتحققهـا ، وكمن يعتقد فى شىء اعتقادا غير مبنى على دليل صحيح يُثْبت اعتقاده ، ولا على خبْرَة واطلاع و إحاطة بذلك الشىء : كمن يزعم أن الدين الاسلامى عدوّ للعلم ، أو أنه ليس دينا اجتماعيا ليس فيه ما تصلُح به أمورُ الناس فى هذه الحياة الدنيا ، بل هو مجموع أشياء رُوحيَّةٍ لا تعلُّق لها بالحياة الزمنية كما يقولون .

كل أولئك الذين ضربنا لك بهم الأمثال قومٌ اقتفَوْا فيما قالوا وفيما عملوا أشياء لم يعلموها ، واتّبعوا خُطُوات لم يتبينوها ، وسلكوا سبُلا بعُدُوا فيها عن الحق وضلوا ضلالا بعيدا . وهم بعد ذلك

يحسبون أنهم يحسنون صُنعًا ؛ وبذلك يكونون قد أساءوا إلى نعم الله تعالى عليهم بالسمع والبصر والفؤاد ، وعطّلوا حكمة الله سبحانه فى الإنعام بها، ولم يستعملوها فيما خُلقت لأجله . « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ »[1] . وكانوا فى زمرة من قال الله تعالى فيهم : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] .

(٥) ختم الله جل ثناؤه هذه الوصايا الجليلة المتقدّمة بتلك الوصية العظمى فنهى الناس جميعا عن رذيلة هى جُمّاع الرذائل ومجمع النقائص ، وهى رذيلة الكبرياء فقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ ﴾ الآية .

النهى عن الكبر والغرور والخيلاء

يتملك الاغترار بعض الناس فيتوهم أن له صفات تكسبه العظمة وينتحل نعوتا يزعم أنه فاق غيره بها ، ويُخيَّل اليه أنه قد استأثر بفضائل حُرِمَ غيره منها ، وتُزيِّن له نفسه أنه اختص بمحاسن يتوهم بها أنه قد صار وحده خلقا آخر .

لذلك : ترى هذا المتكبر اذا مشى مشى مِشْية المستكبر المتعاظم رافعا رأسه ، شامخا بأنفه الى السماء، كأنه يَصَّعَّدُ فيها،

(١) ٢٦. من سورة الأحقاف . (٢) ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر .

شديد الدَّوْس والضغط على الأرض بقدميه كأنه يخرقُها ويَثْقُبُها ، مختالا مترنّحا (١) فى مشيته ، معجباً بنفسه التى كَذَبَتْه (٢) وخدعته . وكانت به من المستهزئين الساخرين .

ضعف الانسان وعجزه فى الواقع

ثم إن الله عظم شأنه بعد ان نهى كل عبد من عباده عن رذيلة المَرَح فى الأرض ، بيّن له أنه حقير ضئيل عاجز ضعيف ، وأن التكبر لا يجعله كبيرا كما زعم ، وأن التعظُّم لا يُصَيِّرُه عظيما كما وَهِم ، فانه ان أراد الانخفاض فى الأرض والنَّفَاذَ فيها بشدّة الضغط عليها فى مِشْيَتِه فانه لا يقـدر على ثَقْبها كما سوّلَتْ له نفســه ؛ وان أراد الارتفاع والعلوّ فى الفضاء برفع رأســه وشموخ أنفه فى مِشْيَتِه فانه لن يستطيع أن يساوى الجبال فى ارتفاعها وطولها .

وأيضا : انْ زَعَمَ هذا المَرِحُ المغرورُ بنفسه أن كبره واختياله يجعله سيدا على الناس ، ويُصَيِّرُه أرفعهم وأشرفهم وأعزهم ؛ فانه يكون قد تمنّى مالا يَنَالُ ، وما مَثَلُه فى هذا القصد الدنىء إلا كمثله اذا أراد أن يخرق الأرض فيبلغَ جانبها الآخر ، أو اذا أراد أن يرتفع فيساوى الجبال طولا .

---

(١) متمايلا ذات اليمين وذات الشمال . (٢) حدثه حديثا كاذبا .

سوء عاقبة الكبر والغرور

ان هؤلاء المتكبرين المغرورين قد أَرْكَسُوا(١) أنفسهم فى عكس ما كانوا يرغبون . وباءوا بغضب من الله ومن النـاس أجمعين .
« لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ(٢) » « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(٣) » « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٤) » .

(١٠)

قال الله تعالى : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(٥) » .

(١) الإركاس — هو تنكيس الشىء وقلبه رأسا على عقب .
(٢) ٨٠ — ٥ المائدة .
(٣) ٢٣ — ١٦ النحل .
(٤) ٨٣ – ٢٨ القصص .
(٥) ١٧ — ١٨ — ١٩ من سورة لقمان .

التفســـــير

المفردات : تصعر خدّك تمله تكبرا . مرحا : فرحا وبطرا . المختال : المعجب بنفسه . الفخور : كثير الفخر والمباهاة . اقصد : اعتدل وتوسط . اغضض : اخفض .

تضمنت هذه الآية الوصية بالأمور الآتية :

(١) اقامة الصـلاة أى أداؤها فى أوقاتهـا تامة الشروط والأركان لتحسن أخلاق المصلى وليتباعد عن الفحشاء والمنكر .

(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : بأن يأمر النـاس باتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه على قدر استطاعته . ومن فعل ذلك يخجل أن يراه أحد متصفا بغير ما يقول : فتصلح حاله وحال غيره ، ويكون ذلك سببا فى سعادته وسعادة أمته .

(٣) الصبر . أى الثبات وعدم الجزع عند حصول مصيبة ، أو فقد شىء محبوب ، أو صعوبة عمل من الأعمـال ؛ وأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج الى الصبر ؛ لأنه لا بدّ أن يناله من الأذى شىء كثير لا يتحمله إلا أهل العزائم القوية والهمم العـالية .

(٤) النهى عن الكبر . وهو التعالى على النـاس وإظهار احتقارهم بأن يولى وجهه عنهم كبرا وتيها ، أو يمشى متبخترا معجبا ، أو يفتخر على غيره بالغنى أو الجـاه أو غيرهما فيكرهه الله و يعاقبه ، و يحتقره الناس و يبغضونه ولا يسـاعدونه ، فتسوء حاله و يضيق رزقه .

والكبر أساس كل شر ، ومنبع كل ضير ، ولو كانت مضـاره مقصورة على المتكبر لسهل الأمر وهان الخطب ، ولكن كبر الرؤساء يقتـل الفضـائل فى نفوس المرءوسين ، وكبر الرجل على أولاده وزوجه يميت نفوسهم و يعوّدهم الاستكانة والخضوع ، وكبر المعلم على تلاميذه يزهق روح استقلالهم ، ويذهب بحـريتهم و يضعف مواهبهم ، ولا يجعلهم كبار النفوس كبار الهمم .

(٥) الاعتدال فى المشى : وذلك بألا يسرع ولا يبطئ ؛ لأن السرعة علامة الطيش ، والبطء علامة الكسل ، وخير الأمور أوساطها .

(٦) خفض الصوت : أى عدم رفعه زيادة على المطلوب ؛ لأنه أوقر للتكلم ، وأدْعى الى انتباه السامع ؛ ولأن فى رفعـه تعبا للتكلم ، وإزعاجا للمخاطب .

وأفظع الأصوات ما كان عاليا تستك منه المسامع، وينفر منه السامع، ودونك أصوات الحمير فإنها منفرة كل التنفير .

وفى الآية حث الوالدين على نصح أولادهم وتخولهم بالموعظة الحســـنة .

(١١)

قال الله تعـالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ المؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَـيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًـا مُبِينًا »(١) .

التفســـير

المفردات — بغير ما اكتسبوا : بدون جناية جنوها .

البهتان : الزور . الإثم : الذنب .

المعنى — من شأن المؤمن المخلص لدينــه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا فرق فى ذلك بين الرجل والمرأة، كل منهما مطالب بذلك .

ومثل هذا العمل يدعو الى نفور المفسدين من الداعى؛ لأنه يحول بينهــم وبين رغباتهم ، وينغص عليهم ملذاتهم ، ويصــك

(١) ٥٨ الأحزاب .

آذانهم بزواجر ربهم ، وقد سولت لهم أنفسهم أن يغفلوها أو يتغافلوا عنها .

فاذا استمر هؤلاء على اقتراف آثامهم ، وامتهان عقولهم ، وعكف أولئك على نصحهم وإرشادهم ، توترت العلائق بينهم ، وامتلأ قلب الجناة حقدا وحنقا وغيظا وألما : فتنطلق ألسنتهم الأثيمة بذم الداعين ، وانتقاص المصلحين ظلما وعدوانا وكذبا وافتراء ، بدون إثم اقترفوه ، ولا ذنب فعلوه ، وتمتد أيديهم الخاطئة بأذاهم وسلب مرافقهم .

وأن من فعل ذلك كان ذنبه عظيما ، وخطؤه جسيما ، وعقابه أليما .

(١٢)

قال الله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » (١) .

---

(١) ٤٠ — ٤١ من الشورى .

التفســـير

المفردات — سيئة : ذنب . سيئة مثلها : عقاب . أجره : ثوابه . انتصر : أخذ حقه . سبيل : أى طريق إلى اللوم .

المعنى —

جزاء الاساءة — ينبغى أن توزن إساءة المسيء وزنا دقيقا ، وتقدّر تقديرا محكما، وأن يوزن لهـا جزاء يماثلها ، ويكون قدرها وكفاءها ، ليؤثر العقاب أثره؛ ويوصل إلى الغرض المقصود منه . وهو ردع المسيء عن إساءته ، وزجر الناس عن الاقتداء به .

وبدهى أنه إن قل العقاب لم يكن رادعا ، وإن زاد كان ظالمـا . وكلاهما ليس من الحكمة فى شيء .

كيف تقابل السيئة ؟ — اذا اعتدى عليك معتد بلا إثم جنيته ، ولا ذنب ارتكبته ، فلك فى الانتصار منـه طريقتان : طريقـة آجلة، وأخرى عاجلة .

الطريقة الآجلة : هى أن تعفو عمن ظلمك ؛ وتصـل من قطعك ، وتعطى من منعك ؛ تفعل ذلك وأنت قادر على خصمك ابتغـاء وجه ربك ، وإصلاح خلقـك ، وتقويم عوج عدوّك ، والاقتداء بك فى قومك .

ورغبة فى تجنب الظلم؛ لأن الانتصار لا يكاد يخلو من الزيادة، لصعوبة تحقيق المماثلة. والزيادة ظلم، والله لا يحب الظالمين؛ ومحبة فى ثواب الله تعالى فقد جعل للعافى جزاء محتما وأجرا معظما.

الطريقة العاجلة: أن تنتصر من خصمك فى الدنيا، والانتصار حسن فى نفسه، فلا لوم عليك ولا غضاضة فى استعماله؛ لأنه قد يكون لشأن دينى هام، أو لأمر دنيوى يترتب على تركه فساد ومحنة.

طرق الانتصار: يكون الانتصار بطريقتين:

(الأولى) أن ترفع أمرك إلى الحاكم لينتصر لك من ظالمك. ويجب ذلك إذا كان حدا من حدود الله تعالى، أو أمرا من الأمور التى يترتب عليها استتباب الأمن واستقرار النظام العام.

(الثانية) أن تأخذ حقك بنفسك ويكون ذلك فى الأمور التى لا يترتب عليها حدوث الفوضى أو فساد النظام أو الفتنة والبلاء

(١٣)

قال الله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» [١].

(١) ٦ الحجرات.

التفســـير

المفردات — فاسق : مخالف لأمر ربه . فتبينوا : تثبتوا . بجهالة : جاهلين حالهم .

المعنى — الغرض من هــذه الآية تحذير المسلمين من استماع كلام الفاسقين، حتى لا يقعوا فى حبائلهم فتسوء عاقبتهم .

ذلك لأن الفاسق لا يتحــرج عن الكذب ولا يبـالى وقوع الضرر بمن يكذب عليه ، ولا يحب أن يكون المؤمنون آمنين مطمئنين ، متحدين مؤتلفين، ترفرف عليهم أجنحة السلامة .

فاذا اجترأ فاسق من الفاسقين وأخبركم خبرا زينه لكم، وهوّله فى نفوسكم، فلا تصدقوا قوله، ولا ترتبوا عليه أثره، فليس الشأن فيه أن يَمْحَضَكم النصح ويخلص لكم فى القول، بل الواجب عليكم أن تتثبتوا بأنفسكم مما قال وتتحروا جهدكم الحادثة، حتى لا تعاقبوا المظلومين ، ثم اذا تبــين لكم خطؤكم أصبحتم من النادمين حيث لا ينفع الندم، ولا يفيد الأسف .

وفى الآية حث على التوبة والندم عند تبين الخطأ .

(١٤)

قال الله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[(١)] .

التفسير

تضمنت هذه الآية الأمور الآتية :

(١) الحث على إقامة الصلاة أى الإتيان بها مقومة معدّلة تامة الشروط والأركان، مع الخشوع فيها واستحضار عظمة الله تعالى ، فاذا كانت كذلك نهت المصلى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » .

(٢) الحث على إعطاء الزكاة . ذلك لأنها تطهر النفوس وتزكيها وتقوى أواصر المحبة بين الأغنياء والفقراء . وتقلل الآثام والشرور قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

(٣) الحث على عمل الخير : ويكون ذلك بالكلمة الطيبة والفعل الحسن، وبذل المال للمحتاج من الأهل والأقارب

(١) ٢٠ المزمل .

وإتقان الأعمــال والاخلاص فيهــا ، ومساعدة الضعيف ونصرة المظلوم وما الى ذلك .

(٤) الحث على الاستغفار . فينبغى للمســلم ألا يعتمد على عمله ، بل يلزمه أن يطلب من الله غفران ذنوبه ، وستر عيوبه ، فان الانسان لا يخلو من التفريط ، ولا ينجو من إهمال بعض الواجبات أو التقصير فيها .

(١٥) الآيـــة

قال الله تعالى : — « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ . وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (١) .

التفســــير

تضمن الآية ثلاثة أنواع من الخيانة

المعنى — تتضمن الآية الأولى النهى عن ثلاثة أنواع من الخيانة :

النوع الأوّل — خيانة الله تعالى — وتكون بترك أوامره ، وفعل نواهيه ، فمن ترك الفرائض كالصلاة أو الزكاة أو الحج

(١) ٢٧ — ٨ الأنفال .

أو الصوم، وارتكب المحرمات كالسرقة والقتـل والغِيبة والنميمة . فهو خائن لله تعالى .

النوع الثانى — خيانة الرسول — وتكون بترك العمل بسنته وشريعته، فمن لم يعمل بما ثبت عن الرسول، صلوات الله عليه . كان خائنا له .

النوع الثالث — خيانة الناس أمانةَ بعضهم بعضا ؛ فمن أودع عند آخر وديعةً لثقته به ، ولم يسلمها اليه كما أعطاها إياه ، فهو خائن . ومن كلفتَه تبليغ رسالة الى صديق لك فزاد عليها أو غيّر فيها أو حرَّف أو بدّل لغرض سيئ ، فهو خائن .

ومن تعهّد لك بعمل من الأعمال على نظام خاص، ولم يعمله على ذلك النظام المتفق عليـه ، فهو خائن ، كما يفعـل كثير من العمال الآن .

ذم الخيانة شرعا وعقلا

والخيانة مذمومة شرعا وعقلا ؛ لأنهـا تدل على دناءة النفس وخسة القدر . وصاحبها مكروه بغيض ، ينفِر منه إخوانه وأحبابه ، وأقاربه وأصحـابه ، إذا سألهم لا يعطونه ، وإذا احتـاج اليهـم لا يساعدونه ، إن عاش كان حقـيرا ، وإن مات مات ذليلا ،

لا يسمع له قول، ولا يرجى منه نفع، ولا يشـترك معه أحد، ولا يتخذه نصيرا، ولا يرضاه معينا أو مديرا .

من أقبح الخيانات الخيانة عمـدا . حادثة فى ذلك

ومن أقبح أنواع الخيانة : أن تخون عامدا متعمدا : أى أن تخـون وأنت تعـلم أنك تخون ؛ رُوى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قُرَيْظَة[١] إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصـلح على أن يسيروا إلى إخوانهم بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن مُعاذ، فقالوا : أرسل الينـا أبا لُبَابَةَ[٢] وكان مُنَاصِحا لهم ، فبعثه اليهم . فقالوا : ما ترى ؟ هل ننزل على حكم سعد بن مُعاذ؟ فأشار إلى حلقـه، أنه الذبح . قال أبو لُبابة : فمـا زالت قَدَمَاىَ حتى علمت أنى قد خُنْتُ الله ورسوله . فنزلت فشـدَدت نفسى على سارية[٣] فى المسجد وقلت : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوبَ الله علىّ . فمكثت سبعة أيام ، ثم خَرَرْت مغشيا علىّ، ثم قيـل لى قَدْ تِيبَ عليك، فَحُلَّ نفسَك . قلت لا . والله لا أَحُلُّها حتى يكونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يَحُلُّنى .

---

(١) قوم من اليهود كانت مساكنهم قريبة من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) صحابى جليل . (٣) عمود .

بخاء فَخَلّنى بيــده . فقلت : ان من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أَصَبْت فيها الذنب، وأن أَنْخَلِـع من مالى : فقال عليه الصلاة والسلام : يَجْزِيكَ الثلُث أن تتصدق به .

وهذا هو السبب فى نزول هذه الآية .

وأراد الله تعالى فى الآية الثانية أن يبين لعباده رأفة بهم وشفقة عليهم سبب خيانتهم ومصدر بلائهم؛ لِيُفيقوا من غفلتهم و يفكروا فى أمرهم فقال : « واعلموا انما أموالكم » الآية .

يريد الله تعالى أن حب جمع الأموال ، والعملَ على التمتع بها إلى أقصى حدّ مستطاع ،وأن حب الأولاد والاغترارَ بهم والاهتمامَ بمصالحهم، يشغل قلب المرء عن ربه، و يلهيه عن تأدية واجبه، و يجرّؤه على مخالفــة أوامره ، والخيانة فى حقوقه ، ولكن العاقل لا يغتر بذلك، فيستبدل بالنعيم المقيم المتاع الزائل .

وهذا ترغيب من الله للؤمنين فى الإنابة إلى ربهم،والاقبال على خالقهم؛ لينالوا ما أعدّه لهم من الثواب العميم، والنعيم المقيم .

تفسير الآيات الزائدة على المنهج

(١) الآيــة

قال الله تعالى : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ . وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١) » .

التفســــير

المفـــردات — السوء من القول : القبيح منه .

المعـــنى — يحب الله من المؤمن أن يكون طاهر اللســان عفيف النطق؛ لأن ذلك يدل على طهارة القلب وصفاء النيــة . و يكره منــه أن يلفظ السوء أو يقذف أحدا أو يشتُم مخلوقا ، لأن ذلك يدل على خبث الطوية وسوء الضمير .

ولا فرق فى ذلك بين أن يجهر بالقول الجارح أو يُسِرَّ به؛ لمــا فيهما من المخالفة للأخلاق الفاضلة، والصفات الشريفة، و إنمــا

(١) ١٤٨ — ٤ النساء .

نبّه الله تعالى على الجهر دون السر؛لأنه أفحش وأشنع؛إذ ربما كان سببا فى أن يقلد قائلَه صغارُ العقول ضعافُ النفوس ؛ ولأن الانسان اذا تعوّد ترك الجهر أوصله ذلك الى ترك السر .

وقد أباح الله للظلوم أن يجهر بالقول الفاحش عند الشكوى لمن ينصفه : كأن يقول : شتمنى فلان وقال لى : كيت وكيت : ويذكر نص ما قيل له . ومعنى عدم حب الله تعالى للجهر بالقبيح من القول : معاقبة قائله عليه .

(٢) الآيـــة

قال الله تعـالى : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .

التفســـــير

المفردات — ولا تنازعوا : ولا تختلفوا . فتفشلوا : تضعفوا وتجبنوا . وتذهب ريحكم : قوّتكم ودولتكم .

(١) ٤٦ — ٨ الأنفال .

المعنى — نهى الله تعالى المؤمنين عن التنازع والاختلاف فيما بينهم؛ لأن ذلك يؤدّى الى تفرقهــم وظهور الجبن والضعف فى نفوسهم، ودخول الوهن والخلل فى أعمالهم، كما يؤدّى الى ذهاب قوتهم وبأسهم واضمحلال دولتهم وسلطانهم، وهذا حث على الاتحاد والابتعاد عن الخلاف والشقاق .

ولمـا كان كل من الاتحاد وترك التنازع والشقاق يحتـاج الى رياضة النفس وتذليلها وتمرينها على تحمل المشاق، عقب الله ذلك بقوله : «وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ» أى اصبروا على ما ينالكم فى سبيل الاتحاد من الأذى ، فان الله يساعد الصابرين ويثيبهــم ويوفقهم الى ما فيه سدادهم وصلاحهم .

(٣) الآيــة

قال الله تعالى : « قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[1] » .

(١) ٨٨ — ١٧ . الاسراء .

التفسير

المفردات — الظهير . المساعد .

المعنى — كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يخط كتابا ولا يقرأ مكتوبا ، نشأ فى بلدة أهلها أئمة البلاغة وفحول الفصاحة ، فأراد الله تأييد نبيه بمعجزة من جيّد تجارتهم ونفيس بضاعتهم ، فأنزل عليه القرآن الكريم ، وفيه من الشرائع الخالدة ، والآداب الغالية ، والقصص النافعة ، والمواعظ الزاجرة ، ما ينفع الناس فى معاشهم ومعادهم ، كل ذلك بألفاظ عذبة سهلة ، وتراكيب متينة واضحة ، وأسلوب جَذّاب خلّاب ، فقام المعاندون وعارضوا ، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا . وقد أنبأنا الله تعالى بعجزهم ، وإعجاز القرآن لهم ؛ بل بعجز الإنس والجن جميعا عن أن يعارضوه ولو أعان بعضهم بعضا فقال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

فهو الحجة الدامغة ، والبرهان الدائم ، والدليل القاطع على صحة رسالة سيد الخلق ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فيجب علينا التصـديق برسالته والعمل بسـنته ؛ لنكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

(٤) الآيات

قال الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام : « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» (١) .

التفســـير

المفــردات ــ طغى : جاوز حدّه ــ يتذكر : يتعظ ــ يخشى : يخاف .

المعــنى ــ أمر الله سـيدنا موسى وأخاه هارون أن يذهبا الى فرعون ذلك الكافر الجاحد الذى ادعى الربوبية؛ ليدعواه الى طاعة الله تعالى والايمان به . وأن يكون ذلك بكلام ليس فيه شدّة ولا غلظة، بل ملؤه اللطف وحسن المجاملة، رجاء أن يتأمل ويتدبر ويتعظ ويتفكر، فيخاف الله تعالى ويؤمن به .

---

(١) ٤٣ و ٤٤ ــ ٢٠ طه .

وإنما أمر الله رسوليه باستعمال اللين معه لأمور :

(١) أن فرعون هو الذى ربّى موسى عليه السلام، فأمره الله باللين فى القول معه رعاية لحقوق التربية .

(٢) أن من عادة الجبابرة اذا أُغْلِظَ لهم فى الوعظ أن يزدادوا عتوًّا وكبرا، والمقصود من الرسالة حصول النفع لا إحداث الضرر .

(٣) تعليم الله خلقه كيف يعظ بعضهم بعضا .

وبدهى أن القول اللين يؤثر فى النفوس الطيبة فيقتلع منها جذور الشرور ويملؤها بالخير . قال تعالى : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » (١) .

(٥) الآيـــة

قال الله تعالى : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ . وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٢) .

(١) ٣٤ - ٤١ فصلت . (٢) ١٧ — ٣٩ الزمر .

التفســـــير

المفردات — فبشر. التبشير هو الاخبار بالخبر الجديد السار — هداهم الله، وفقهم لفعل الخيرات فسلكوا لها سبيلها — الألباب : جمع لُبّ وهو العقل السليم .

المعنى — أمر الله جل اسمه رسوله صلى الله عليه وسلم ! أن يبشر عباده المؤمنين الذين عملوا الصالحات حتى نالوا تشريفه لهم باضافتهم اليه سبحانه ؛ فكلّفه أن يبشرهم بما يسرهم، جزاء لهم على ما عملوا ، ومكافأة لهم على استماعهم لقول الحق الذى بلّغوهُ عن الله تعالى ، على لسان رسـوله الصادق الأمين ، وخلفائه وورثة دينه القويم من العلماء المرشدين .

استمعوا ذلك ووعَوْه، ثم عملوا بأحسن ما علموا، فكانوا من من المهتـدين الجديرين بأن يختصوا بالاتصاف بالعقول الراجحة ، والبصائر الثاقبة .

ما بشر النبي صلى الله عليه وسلم به المؤمنين

وليس فى هـذه الآية الكريمة تصريح بالمُبَشَّر به ، لكنه قد صرح به فى آية بعد وهى قوله سبحانه : « لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ

لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ . لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ »(١) . كما صرح به فى آيات أخرى ، منها قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ . وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا . يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا »(٢) .

(٦) الآيـــة

قال الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(٣) .

التفسيـــــر

المفردات — القرى : جمع قرية ، وهى تطلق على المدينة وغيرها — واتقوا : أطاعوا ما أمرناهم به ، وتباعدوا عما نهيناهم

(١) ٢٠ — ٣٩ الزمر . (٢) ٥٥ — ٢٤ النور .
(٣) ٩٦ — ٧ الأعراف .

عنـه — لفتحنا عليهم : لأرسلنا و يسرنا ووسّعْنا — بركات من السماء والأرض : خيرات منهما .

المعنى — أخبر الله تعالى بأن سنته قـد مضت بأن يفتح على النـاس و ييّسر لهم بركات السماء والأرض اذا هم آمنوا بشرائعه، واتقوْا عقابه بطاعة أوامره ونواهيـه ، ولكن كثيرا منهـم كذّب وأعرض عن أمر الله فعذّبهم بمـا كسبت أيديهم من أعمال الشر والفســاد .

أما بركات السماء فهى : الهواء الجيد الصالح ، وسحاب الخير المظل النافع ، والطير المختلف الأجناس والأنواع العظيم الفوائد : غذاء ورياشا ودواء ، والمطر الذى تحيا به الأرض بعد موتهـا ، وتصبح مخضرّة نضرَة قد أنبتت من كل زوج بهيج .

و بركات الأرض : هى النبـات على اختلافه ، والثمـار على تنوعها ، والمواشى والأنعـام وغيرها مع كثرتها وتعـدّد أجناسها ، والسلامة والأمن والخِصب وطِيبُ الحياة، وكثرة الأهـل والولد الى غير ذلك .

(٧) الآيـــة

قال الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ . فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ . ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (١) .

التفسـير

المفردات — وأولى الأمر منكم : أولو الأمر هم أهل الحل والعقد من العلماء والحكام — تأويلا : مآلا وعاقبة .

المعنى — أمرنا الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعة أولى الأمر المؤمنين .

وطاعته تعالى : هى اتباع أوامره واجتناب نواهيه على طبق ما جاء فى الكتاب الكريم .

وطاعة الرسول : أن نتبع ما جاء فى الأحاديث الشريفة الصحيحة . لأنها بيان لما فى القرآن الحكيم — مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ

(١) ٥٩ — ٤ النساء .

فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ — وطاعة أولى الأمر : هى امتثـال أمرهم الذى لا يخالف حكما من أحكام الشريعة المطهّرة ، وانمـا وجبت طاعتهم ؛ لأنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ! المهيمنون على أمته ، القائمون بجلب المنافع لها ودرْء المفاسد عنها ، القادرون على حسن التصرف فى الأحوال العامة على الوجوه المرضية ، البصيرون بحلّ ما تعقّد من المشـكلات ، الخبيرون بعقد ما تفكّك وتشتّت من شؤون الأمة ومصالحها .

ثم أمرنا عز وجل عنـد التنازع والاختـلاف فى شىء من الأشياء، أن نردّه إليه والى رسوله .

ومعنى الرّد اليـه والى رسوله : أن نعرض الأمر المتنازَع فيه على الكتاب والسـنة ونتبع فيـه ما جاء فى مثله من أحكامهما ؛ فان الايمـان الصحيح يستوجب العمل بتلك الأحكام .

و بعرض المتنازع فيه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسـلم يرتفع الخلاف ، ويعود الائتلاف ، وفى ذلك الخـير وحسن العاقبة .

(٨) الآيـــة

قال الله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ . فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا [١] » .

التفســـــير

المفردات ــ مغلولة : الغُــلّ طوق من حديد يجعل فى عنق المذنبين . وقــد تضم اليــد الى العنق داخل الغــل ، وهو كناية عن البخل والشح ــ ولا تبسطها : البسط ضد القبض وهو كناية عن الاسراف والتبــذير ــ فتقعد : فتصــير ــ ملوما : اللوم هو الكلام على وجه التخطئة والتوبيخ ــ محسورا : نادما على سوء ما فعلت وعاجزا عن الانفاق وعن تدارك ما فاتك من فعــل البر والخير لنفسك ولغيرك .

النهى عن البخل

المعنى ــ هذا أدب من الآداب الاسلامية أرشدنا الله تعالى اليــه . نهى سبحانه الانسان أن يبخل بماله ، ولا ينفقه فى مواضع

---

(١) ٢٩ ـــ ١٧ الاسراء .

الاتفاق المشروعة . كذلك نهاه أن يسرف فى الانفـاق ويتجاوز الى حدّ التبذير .

ضرر التفـريط والافراط

فان كلا من هـذين الطرفين ذميم ؛ لأن التفريط والافراط فى كل أمر مجلبة للضرر والخسران، وسوء العاقبة واستحقاق الملامة عند الانسان نفسه، وعند الناس، وعند الله تعالى .

وجه تحريم البخل والتبذير

إن كلًّا من البخيل بماله ، والمبذر له ، قـد عطّل حكمة الله تعالى التى لأجلها جعـل الأموال قياما للناس، وأساسا تبنى عليـه مصالحهم، ووسيلة صالحة يتوسلون بها الى قضاء مآربهم ، ونيل حاجاتهم، ونظام معايشهم .

ما سنه الله تعالى للناس فى انفاق أموالهم

لهذا — أوجب الله سبحانه على الناس أن يسيروا فى إنفاقهم لأموالهم فى الطريق الوسط المعتدل ، لا يحيدون عنه الى الجانبين الممقوتين ، جانبى التفـريط بالبخل، والافراط بالتبـذير . كما قال تعالى : « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْـذِيرًا » (١) . وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا . وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » (٢) .

---

(١) ٢٦ — ١٧ الاسراء . (٢) ٦٧ — ٢٥ الفرقان .

(٩) الآيــة

قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ . وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[(١)] » .

التفســـير

المفردات — سخّر : سهّل ويسّر — الفُلك : السـفائن ، وهو بلفظ واحد للفرد والجمع — بأمره : باذنه وارادته وتيسيره — من فضله : من نعمه الكثيرة .

تسخير الماء والهواء للانسان وتوفيقه للانتفاع بها .

المعنى — علّمنا الله جل ثناؤه فى هذه الآية الشريفة أنه سبحانه تفضّل علينا بنعمة من نعمه، تسهيلا علينا وتوفيرا لموارد أرزاقنا . فسخّر لنا البحار، وكوّنها تكوينا لا يقدر عليه سواه؛ وذلك أنه عظمت قدرته جعل الماء مائعا تغوص فيه الفلك بمقدار، وجعل سطحه أملس لتجرى عليه ، وسخر الرياح ، وهدى الناس الى اختراع البخار وغيره؛ لسوق الفلك وهى تمخر عبابها على وَفق

---

(١) ١٢ — ٤٥ الجاثية .

المراد ، كما أنه جعل الخشب ونحوه يطفو على وجه المـاء اذا صُنع على الهيئة والتركيب اللذين أرشد الله تعالى الانسان اليهما . كذلك بيّن لنـا تعالى الحكمة الإلهية التى لأجلها سخرلنا البحر على هـذا الوصف البديع ، فذكر أنه الرأفة بنـا ، وتمكيننُا من ابتغاء فضله و إنعامه ؛ فيسهل علينا تحصيل أرزاقنا ، وتتيسر لنا أسباب عيشنا ، وننال رفاهية حياتنا : ونعرف مقدار ما تفضـل به علينا من هذه النعم ، فنقر بوحدانيته ونشكر له ما أنعم وتفضّل .

حكمة الله سبحانه فى تسـخيره لنـا البحـر

(١٠) الآيــة

قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ[1] » .

التفســـير

المفردات ــ ذلولا : منقادة يسهل السـير عليها والانتفاع بمـا فيها . فامشوا : المشى هنا السـير على الأرجل أو غيرها ممـا

(١) ١٥ ــ ٦٧ الملك .

يحصل به الانتقال من مكان الى آخر : كالدواب والعجلات والطائرات — مناكبها : المناكب جمع منكِب ، وهو هنا ناحية الشىء وجانبه — النشور : المرجع والمصير يوم القيامة .

المعنى — ان الله جلت نعمته وحكمته قد يسّر للناس الوسائل التى بها ينالون أرزاقهم ، ويعيشون العيشة الراضية .

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآية الكريمة وسيلة من هذه الوسائل ، وهى الأرض التى جعلها مستقرا لنا ، خلقها كما اقتضت حكمته البالغة ذلولا منقادة ، يسهل على الناس أن ينالوا منها ما يحتاجون اليه فى تقويم أمورهم ، واستقامة شؤونهم ، ورفاهية معايشهم ، وسائر ما تصلح به أحوالهم .

خلق الأرض على حالة تمكننا من الانتفاع بها

فقد جعل مادتها أجناسا مختلفة المنافع ، فكان بعضها صخرا ، وبعضها معدنا ، وبعضها ترابا ، الى غير ذلك .

إباحة الانتفاع بما أودع الأرض

جعل الله تعالى الأرض للناس على هذه الحالة التى عرفتها . ثم أباح لهم أن يتنقلوا فى نواحيها ، ويسيروا فى أقطارها ، ليكتسبوا

من فوائدها، وينتفعوا من خيراتهـا ويحصلوا منها على حوائجهم ورغائبهـــم .

وجوب سلوك الطرق المشروعة فى الانتفاع

ولكن عليهم أن يسلكوا فى ذلك كله الطرق المباحة المشروعة التى أذن الله بها، ولا تأباها العقول الصحيحة السليمة .

التحذير من سلوك غير الطرق المشروعة

أما من أطاع الطمع والشره، وسلك غير تلك السبل المشروعة التى يرضاها الله والعقل، فأن مآله الى الله تعالى وحده يوم القيامة، وإذ ذاك يحاسبه حسابا عسـيرا، ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا .

(١١) الآيـــة

قال الله تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا . وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (١) .

---

(١) ١١٨ — ٣ آل عمران .

التفسير

المفردات — بطانة : أصفياء تثقون بهم — من دونكم : أى غير المسلمين — يألون : يقصرون — خبالا : فسادا — ودُّوا : تمنَّوا — عنتم : العنت المشقة وشدّة الضرر — الآيات : العلامات .

المعنى — لما كان الانسان لا يمكنه أن يستغنى عن أصفياء يستشيرهم فى مهامّ أموره . ويبُث اليهم شكواه ، ويطلعهم على أسراره وخفاياه . بيّن الله لنا فى هذه الآية ما يجب أن يلاحظه المؤمنون فى ذلك ، فقال مخاطبا لهم بما معناه :

اذا اتخذتم أصفياء فلا تتخذوهم من غير المسلمين ؛ لأن من كان من غيرهم يجتهدون كل الاجتهاد فى فساد أعمالكم ، وارتباك أحوالكم ؛ ولأنهم يتمنَّون لكم الضرر والأذى بكل طريقة من الطرق الممكنة ؛ ولأنهم يذكرونكم بالسوء فى المجامع والمجالس ؛ لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم لكم ؛ وهذا الذى

يُظْهِرون قليل فى جانب ماتُكِنُّه ضمائرهم، وتشتمل عليه نفوسهم؛ لأنه صادرمن غير روية واختيار .

قد بيّنّـا لكم الدلائل التى تحملكم على موالاة المؤمنين ومعاداة غيرهم، واعلكم تعقلون هذا فتفعلوا ما فيه صلاحكم .

والغرض : أن يتخذ الانسان أحبابه المخلصين من أهل جنسه وملته ووطنه .

(١٢) الآيـــة

قال الله تعـالى : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١) » .

التفســـــير

المفردات ـــ اعملوا : أمر لمن يعملون الصالحات بأن يثبتوا على أعمالهم الصالحة، وتهديد وتخويف لغيرهم ـــ الغيب والشهادة:

(١) ١٠٥ ـــ ٩ التوبة .

الأشـياء الغائبـة والمشاهدة بالنسبة الينا ، فينبئكم : فيخبركم به ثم يكافئكم عليه ثوابا أو عقابا .

الأمر بالثبات على العمـل الصـالح الوعد والوعيـد وفى امتثال ذلك ومخالفته

المعنى — أمر الله عز وجل رسوله صـلى الله عليه وسـلم ، أن يبلّغ الذين عملوا الصالحات أن الله تعالى أوجب عليهم أن يثبتوا على فعل الطاعات ، ويَحْرِصُوا على كل ما يقربهـم ألى الله زلفى ؛ كما أنه سبحانه يهدّد الذين عمِلوا السيئات ، وينذرهم بسوء العقبى ان استمروا عاكفين على ما هم فيه . فهو ترغيب للصالحين ، وترهيب للطالحين ، ووعد للمحسنين ، ووعيد للمسيئين . ثم إنه جل وعلا زاد

زيادة الترغيب والترهيب فى ذلك

فى ترغيبهم وترهيبهم فبين لهم أن ما سيعملونه لن يخفى على الله ولا رسوله ولا المؤمنين ؛ بل هو ظاهر معلوم عند الله وعند رسوله والمؤمنين فى الحياة الدنيا .

ثم إنكم أيها العاملون سترجعون الى الله عز وجل يوم القيامة ، فيُطْلِعُكم على أعمـالكم ، ويذكّركم منها ما نسيتموه ، ويبدو لكم من الله سبحانه فى ذلك اليوم المشهود ما لم تكونوا تحتسبون . إن خيرا

فخير . وإن شرا فشر : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (١) .

(١٣) الآيات

قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ » (٢) .

التفســـير

المفردات ــ الأنعـام : الابل والبقر والجـاموس والضأن والمعز ــ ولكم فيها منافع : فوائد غير الأكل والركوب . كألبانها وأصـوافها وأوبارها وأشـعارها وجلودها؛ ولتبلغوا عليهـا حاجة فى صـدوركم : هـذه الحاجة غير الركوب عليها وهى حمل الأثقال والأمتعة من مكان الى مكان .

---

(١) ١١١ ــ ١٦ النحل . (٢) ٧٩ الى ٨٠ ــ ٤٠ غافر .

المعنى — من النعم التى أنعم الله تعالى بها على الناس نعمة تسهّل عليهم سفرهم فى البر، ويتمكنون بها من نقل أمتعتهم من ناحية الى ناحية، وإن بعدت عليهم الشُّقَّة، وطال السفر .

منافع الأنعام

خلق الله الأنعام صالحة لركوبهم عليها، وحمْلِ ما لا يقدرون على حمله ؛ ليصلوا الى ما لا يستطيعون الوصول اليه إلا بارتكاب أنواع المشاقّ والمتاعب التى لا قِبَلَ لهم بها ؛ وجعلها مع ذلك صالحة للانتفاع بها على وجوه شتى من وجوه الانتفاع : كالأكل من لحومها ، والشرب من ألبانها ، واتخاذ الأثاث والثياب وغير ذلك من أصوافها وأوبارها وأشعارها .

وقد جعل السفر على الأنعام فى البر كالسفر على الفلك فى البحر، وكل منهما نعمة من الله تعالى على عباده، وآية دالة على قدرته واستحقاقه الشكر من خلقه .

نعم الله من آيات قدرته

والله تعالى يرِى النّاس آياتِه المشتملةَ على النعم الكثيرة ليستدلوا بها على وجوده وقدرته وسائر صفاته الكاملة ، ويشكروا له .

ولا يستطيع إنسان لم تفسد فطرته وتتغلب عليـه أهواؤه أن ينكر شيئا من آياته عز وجل : « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ » .

(١٤) الآيات

قال الله تعـالى : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»[1] .

التفســـير

المفـردات ــ هونا : برفق وسكينة ــ سلاما : أى قالوا قولا يسلمون فيـه من اللوم والإثم ــ غراما : دائما ملازما ــ قواما : وسطا بين الاسراف والتقتير .

(١) ٦٣ الى ٦٨ ــ ٢٥ الفرقان .

تضمن الآيات سبع صفات من صفات المؤمنين

المعنى — ذكر الله تعالى فى هذه الآيات كثيرا من صفات المؤمنين الذين رضى عنهم ورضوا عنه :

الصفة الأولى — أنهم يمشون على الأرض مشيا هينا بسكينة وتواضع لا يمرحون فى مشيهم ، ولا يختالون فى سيرهم .

الصفة الثانية — الصفح عن السفيه ومقابلة إساءته بالاحسان وخطابه باللين ، اذا خاطبهم بالشدّة .

الصفة الثالثة — التهجد بالليل ، يقضون معظم ليلهم فى صلاتهم وعبادة ربهم .

الصفة الرابعة — الخوف من الله تعالى ، وهذا إيذان منهم بأنهم مع حسن مخالطتهم للخلق ، واجتهادهم فى عبادة الحق ، وَجِلُون من العذاب مبتهلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم ؛ لعدم اعتمادهم على أعمالهم ، وعدم وثوقهم ببقائهم على ما حسن من حالهم .

الصفة الخامسة — الاعتدال فى الانفاق ، فاذا أنفقوا لم يجاوزوا حدّ الكرم ، ولم يضيقوا على أنفسهم تضييق الشحيح ، وفى هذا حفظ صحتهم ودينهم .

الصفة السادسة — عدم الإشراك بالله تعالى . فان الاشراك بالله ظلم عظيم، لما فيه من تسوية الخالق الرازق بغيره ممن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

الصفة السابعة — عدم قتل النفس إلا بالحق ، يحافظون على الناس : فلا يتعدّون على حياتهم إلا اذا كان ذلك من طريق الحق والعدل : كالقتل فى قصاص، أو خروج على إمام عادل .

(١٦) الآيات

قال الله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » (١) .

---

(١) ١٩ الى ٢٨ — ٧٠ المعارج .

التفسير

المفردات — الهلوع . الجزوع الحريص .

طبع الانسان الجزع فى الضر، والبخل فى اليسر

المعنى — من الطبائع الثابتة ان الانسان اذا أصابه الضر لا يصبر، واذا عمه الخير لا ينفق .

ارشاد الله تعالى الى أمور تصلح الطبائع الذميمة

ويرشدنا الله تعالى فى هذه الآيات الى أشياء تُغَيِّر الطبائع ، وتردُّنا الى الخير، وهى :

(أولا) المداومة على الصلاة؛ لما فيها من استحضار عظمة الله، والوقوف بين يديه ، والاعتراف له بأنه أكبر من كل شىء . ومثل هذا يدفع المرء الى تحمل الضر؛ لأنه من الله، والى الانفاق، لأنه من مال الله .

(وثانيا) بذل المال للمستحقين . وذلك لأن المال عديل الروح، ومن أنفق ماله فى مرضاة الله فكمن بذل روحه فى سبيله . وهذا يبعث المرء على تحمل ما ينوبه، وانفاق ما يصيبه .

(وثالثا) الايمان باليوم الآخر . فان من اعتقد أن هناك يوما سيعاقب فيه كل انسان على ما اقترف، ويثاب فيه على ما أحسن .

دفعه اعتقاده هذا الى الرضا بما يناله من الآلام، وانفاقه ما يكسبه من الأموال؛ ليجنى الثمرة فى اليوم الآخر، وينال الثواب فى الآجل.

(ورابعا) الخوف من الله؛ فان من خاف الله تعالى لم يرتكب ذنبا ، ولم يجن اثمـا . ولم يسخط شيئا رضـيه مولاه ، ولم يمنـع المستحقين ما منحه إياه .

(١٦) الآيــة

قال الله تعـالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ . وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[1] » .

التفســــير

المفردات — لينفروا كـافة : ليخرجوا جميعا ويتفـرقوا فى البلاد — لولا : كلمة معناها الحثُّ والطلب الشديد — فرقة : جماعة كثيرة — طائفة : جماعة قليـلة — ليتفقهوا : ليقفوا على أسرار الدين وحِكَمِه وآثاره الحسنة — ولينذروا قومهم : وليرشدوهم الى ما وقفوا عليـه من الفقه فى الدين، ويخوفوهم من مخالفته —

---

(١) ١٢٢ — ٩ التوبة .

لعلهم يحذرون . لأجل أن يخشَوْا عواقب المخالفة ، ويُعِدُّوا أنفسهم للعمل بما أمرهم الله تعالى فى الدين .

تحريم خروج المؤمنين جميعا من أوطانهم لطلب المنافع والعلم

المعنى — لم يأذن الله الحكيم للمؤمنين بدينه القويم أن يخرجوا معا دفعة واحدة تاركين أوطانهم الى غيرها طلبا للعلم ، وحبا فى الاطلاع على ما غاب عنهم ، وتعرُّفًا لما عند غيرهم من الأمم من أنواع العلوم ، وصنوف العرفان ، ومختلف العادات ، والمواضَعات ، وغير ذلك من أحوال الحياة العامة والخاصة . حرّم الله عليهم ذلك ؛ لما علمه سبحانه فى ذلك من المفاسد واختلال الأمور ، وتعريض الاسلام وبلاده وأهله للضياع والفناء ، (لا قدّر الله) حَظَرَ عليهم ذلك ثم حضّهم وطلب اليهم طلبا لالين فيه ولا هَوَادَة أن تنفر من كل فرقة كثيرة أفرادُها ، ينتخبهم إخوانهم بعد البحث الصحيح عنهم ، ويتوسّمون فيهم صلاحيتهم للقيام بهذه المهمة الشاقة الجليلة الفائدة ، العامةِ النفع ؛ حتى اذا ما كانوا كذلك أمكنهم أن ينتفعوا بهذا النَّفْر ، وأن يتفقهوا من هذه الرحلات . فاذا رجعوا الى

حكمة الله تعالى فى ذلك التحريم

النظام الذى يتبع فى ذلك الخروج

---

(١) ٦٣ — ٢٤ النور .

إخوانهم أخبروهم بما علموه عند الأمم الأخرى من حسنات طابت ثمراتها لموافقتها لمـا جاء فى الإسلام، ومن سيئات قَبُحت عواقبها وهَوَتْ بأصحابها فى مهاوى الفساد والدّمار، لمخالفتها لتعاليم دين الله تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

الآيـــة (١٧)

قال الله تعالى : «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً . وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ . وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ »[1] .

التفســـــير

المفردات ــ حَفَدَة : جمع حافد، أولاد أبناء وأولاد بنات .

جعل الله تعالى للناس أزواجا من جنسهم وحكمته تعالى فى ذلك

المعنى ــ هذا بيان من الله (ذى الفضل العظيم) أرشد به عباده الى أنه سـبحانه هو الذى أنشأ لهم بمقتضى حكمته أزواجا من

---

(١) ٧٢ ــ ١٦ النحل .

جنسهم الانسانى لا من جنس آخر من أجناس مخلوقاته ؛ لأن الجنس الى الجنس أميل ، وبه آنس وله أحب وأبقى ، كما قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1] » .

تفضله تعالى ببقاء هذا الجنس

كما تفضل عليهم بغير ذلك : من حفظ ذلك الجنس وبقائه بالتوالد والتناسل ، فجعل لهم أولادا وأولادَ أولاد ، يخلُف صغيرُهم كبيرَهم ، ويحيا سلفهم بحياة خَلَفهم ، ويكون أولئك الأبناء والأحفاد عزا لآبائهم ، وقوة لأصولهم : بهم يعتزون ويتناصرون ، ويستعينون على مطالب الحياة وصروف الزمان .

ثم كان من تمام فضله سبحانه عليهم أنه لم يجعل خَلْقَه لهم فى الأرض نقمةً عليهم أو إرهاقا وإعناتا لهم ، فيتركهم وشأنهم ، ويَكِلَهم الى أنفسهم حيارى لا يجدون مابه يعيشون ، عَجَزَةً لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا .

---

(١) ٢١ — ٣٠ الروم .

تفضله بما يصلح حياتهم فى الأرض

لم يكن شئ من ذلك فى رحمته وحكمته سبحانه، بل أتم نعمته عليهم، بجعل الأرض صالحة لسكناهم، ورزقهم من الطيبات، واسبغ عليهم من نعمه ماتستطيبه نفوسهم، ويحفظون به حياتهم، وتصلح به أحوالهم، الى أن تنقضى آجالهم، كما قال عز شأنه: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»[1]. هذه بعض آثار رحمة الله تعالى وآياته التى ترشد عباده اليه، أفيحسُن بهؤلاء العجزة الفقراء، أن يؤمنوا بآلهتهم التى لا تملك لهم شيئا ويكفروا بالله الذى أسبغ عليهم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة.

ولهذا أنكر عليهم إيمانهم بالأصنام الباطلة العاجزة وكفرهم بالله (الحق القدير) فقال: «أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ. وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ».

(١٨) الآيـــة

قال الله تعالى: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا»[2].

---

(١) ٣٦ — ٢ البقرة. (٢) ٢٣ — ١٧ الاسراء.

التفسير

المفردات — أُفّ : كلمة تفيد المَلَل والتضجر — ولا تنهرهما : لا تزجرهما .

أمر الله سبحانه الناس أن يعبدوه وحده

المعنى — أمر الله (العليم بمصالح خلقه) أمراً مُبْرَمًا ، وحكم حكما ثابتا لا مُبَدِّلَ له ولا مُعَقِّبَ ، بأنه لا يجوز لأحد من خلقه الذين سواهم فعَدَلَهم ، أَنْ يملكه الباطلُ فيعبد غير الله الذى هو رب كل شيء ، يستوى فى ذلك أن يشركه مع الله سبحانه فى العبادة ، أو يخصّه بها دونه جَلّ وعَلاَ .

حكمة الله تعالى فى ذلك الأمر

ذلك لأن العبادة هى أقصى غايات خشوع القلب وخضوع النفس ، مع عجز العقول عن معرفة حقيقة ذلك المعبود الأعظم ، الذى عَنَتْ دون كُنْهِهِ أَفهامُ العابدين ، فوجب إِذًا أَلَّا يكون حقيقا بها إلا من كان له غاية الاعظام ، ونهاية الجلال والكمال ، وهو الله الذى له الأسماء الحسنى .

تأكد بر الوالدين

ثم قَرَنَ سبحانه حكمه بوجوب عبادته وحده ، بحكم آخر ، وهو بِرُّ الوالِدين ، وكفى بذلك دليلا على تأكد وجوب البر بهما ، والاحسان

اليهما ، والبـداهة شاهدة بأنهما جديران بغاية الإكرام ، ونهـاية العطف عليهما والطـاعة لهما ، والبرّبهما . وإنا لفى غِنًى عن أن نكلف أنفسنا عَدّ مآثرهما على ولدهما ، أو سَرْدَ إحسانهما اليـه ، أو تفصيل برهما به ، أو شرح ما قاسياه من المتاعب والشدائد ، وما كابداه فى الانفاق عليـه ، وفى حفظه وصيانتـه ، وتمريضه وتعليـله ، وما بَذَلَا فيـه جهدهما من إرشاده وتعليمه ، وتهذيبـه وتثقيفه ، وما وقفا عليه أنفسهما مما يجلب اليه الخير ، ويدفع عنه الشر ، مُنْذُ أَن كان حَمْلًا ، الى أَنْ صار إنسانا سَـوِيًّا لَسْنَا فى حاجة الى شىء من ذلك ؛ فإن علم كل ولد بذلك كعلمه بنفسه ، والإنسانُ على نفسه بصيرة ، هذا هو قوله تعالى شأنه : «وبالوالدين إحسانا» . أى وقضى ربك أيضا أن تحسنوا بالوالدين إحسانا كثيرا ، وأن تَبَرُّوا بهما بِرًّا عظيما . ثم شرع سـبحانه يعلمنا كيف نُحْسِن اليهما ، ونَبَرّ بهما؟ فنهانا عن أخفِّ شىء يكون فيه شائبة منافاة للاحسان بهما فقال : « إِمَّا يبلُغَنّ » الآية .

كل انسان يشـعر بوجـوب بـرّ الوالدين

تعليمه سـبحانه وتعالى لنا كيفية البرّ بهما

والمعنى : أنه إِن بلغ أحدهما أو هـما معا سنّ الكبر ، وكان أحدهما أو كلاهما عندك وفى كفالتك ، وكنت القائم بشؤونهما ،

فلا تقل لهما هذه الكلمة وهى : (أُفٍّ) . لأن معناها أنك تَضْجَرُ منهما ، وتتألَّم من خدمتهما ، وتسأم من قَذَرِهما ، وتستثقل مُؤَنَهُمَا .

ما هو أشد من التأفف أولى بالنهى

فإذا كنت منهيا عن هذه الكلمة ، وهى كما علمت ، فلا ريب أنك تكون منهيا نهيا أشدَّ وآكَدَ ، عما هو أعظم وأقسى منها ، قولا كان أو فعلا . وفقك الله .

حكمة ذكر الكبر والتأفيف منهى عنه مطلقا

وإياك أن يسبق إلى فكرك ، أن النهى عن التأفيف مشروط ببلوغ الكبر ، فإن الكبر إنما ذكر لأنه هو مظنَّةُ التأفُّف والتضجُّر ، فإن لِكبرِ السنّ شؤونا وعوارض ، يثقُل حملها ، وتألم النفس لها ، إلا مَنْ عَصَمَ الله من الأبناء الكرام البرارة .

النهى عن زجر الوالدين

ثم خصّ سبحانه نوعا من الأنواع التى هى أقبح من التأفيف لمزيد العناية والاهتمام ، وارشاد الأبناء الى الإحسان بوالديهم وهو : نهرهما وزجرهما بالقول الغليظ الجافى ، قصدا الى كفهما عما لا يعجب الولد ، ولا يروق فى نظره .

القول الحسن للوالدين

نهاه عن هذا ، ثم أمره أن يقول لهما بدل التأفيف والنهر ، قولا كريما حسنا ، يقضى به حسن الأدب ، ويدعو اليه النزول

على حكم المروءة، وتحتمه الرعاية والمجاملة لوصف الأبوة . والله يوفق من يشاء، لما يشاء .

(١٩) الآيات

قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »[1] .

التفسير

المفردات — ولىٌّ : صديق — حميم : قريب شفيق .

الخصال التى تجعل القول أحسن الأقوال

المعنى : لا أحد يبلغ قوله فى الحسن مبلغ قول من اجتمعت فيه الخصال المذكورة بعد ، وهى خصال أربع :

(الأولى) أن يدعو غيره الى الله ؛ بأن يعرّفه إياه سبحانه ، فيبيّن له نعوته الجليلة، وصفاته الربانية، وكماله الإلهى الذى به

(١) ٣٣ و ٣٤ و ٤١ فصلت .

وجبت ربوبيتـه، وثبتت إلهيته، وتحتم على النـاس أجمعين أن يخصوه بالعبادة والطاعة والخضوع لأحكامه والائتمـار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه، والوقوف عند حدوده، على حسب ما بينـه سبحانه فى دينـه القويم مثبتا لكل ذلك بالأدلة الناطقـة ، مدليا بالحجج النيّرة الساطعة .

(الثانية) عمله الصالح القلبى . وهو صحـة الاعتقاد والمعرفة بالنسبة الى الله عز وجل، والى جميع ما جاء عنه على لسان رسوله الله صلى الله عليه وسلم .

(الثالثة) عمله الصالح بالجوارح . وهوسائر العبادات والطاعات والأعمال التى تؤدّى بهـا حقوقُ الله تعـالى ، وحقوق العباد ، ويجمع هاتين الخصلتين قوله تعالى : « وَعَمِلَ صَالِحًا » .

(الرابعة) الاقرار بمـا يدعو اليه ، والمجاهرة به واعلانه أمام الملأ وعلى رءوس الأشهاد، لتنتشر الدعوة، ويتسامع الناس بها، فيكثر المستجيبون لها، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا .

ثم ان الحكمة الإلهية فى اشتراط هـذه الخصال الأربع واضحة لا تخفى على اللبيب الفطن . وذلك : أنـ الأولى دلالة على الله رب العالمين، مسبـغ الفضل والنعمة والرحمة ظاهرة و باطنة على عباده، وهو الغنىّ عنهـم، وهم الفقراء إليه : « يَأَيُّهَا النَّـاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ . وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »(١) .

الحكمة الإلهية فى اشتراط هـذه الخصال الأربع

وأما الثانية والثالثة — فان الداعى الى الحق . الآمرَ بالمعروف والناهىَ عن المنكر، اذا لم يكن عاملا بمـا يدعو اليه ، فان السامعين لدعائه يرتابون فى صحتـه واقتناعه به ، لأنه لو صح عنده واقتنع به لكان أوّل العاملين به ؛ ومن هـذا تعلم عدم تأثير أكثر ما يقال وما يكتب ؛ لأن أكثر هؤلاء القائلين والكاتبين غير عاملين بما يقولون وما يكتبون . بل لا يحسبون لذلك حسابا ولا يقيمون له وزنا : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٢) .

سـبب عدم تأثير ما يكتب و يقال الآن

---

(١) ١٥ — ٣٥ فاطر .

(٢) ٢ و ٣ — ٦١ الصف .

وأما الرابعة — فانها تربّى ملكة الشجاعة فى الدعوة الى الحق، وتنمّى فضيلة الجرأة المعتدلة المحمودة فى بيان الرشد من الغىّ، وهداية الناس الى الطريق السوىّ المستقيم، كما أنها تهوّن على الداعى ما يصيب فى العادة الدُّعَاةَ المصلحين .

(٢) وقد اشتملت الآية الثانية على تأديب إلهى أدّب الله تعالى به عباده تهذيبا للنفوس، وتطهيرا لها من وصمات النقائص، وتربيةً للفضائل، وتنمية لملكات الخير والبر .

نبّهنَا سبحانه على أن الخصلة الحسنة والخصلة السيئة لا تتساويان، وأن المعاملة الطيبة، والمعاملة الخبيثة لا تتعادلان .

هذا حكم صحيح معلوم بالبداهة، ولكن الأمر البدهى قد تغفُل عنه النفس أو تتحكم فيه قوّة الغضب . فيقع الانسان فى مخالفته وعصيانه .

لهذا أيقظ الله تعالى النفوس ، ولفتَهَا الى هذا الحكم الفطرى لتعمل به ولا تهملَه ، ولا تَدَعَ لقوّة الغضب وداعية العداوة سبيلا الى التغلب عليه، والحرمان من أثره الحميد .

بعد أن مهّـد سبحانه هـذا التمهيد الحكيم ، علّمنـا الخصلة الحسـنة التي يرضاها فأمرنا أن ندفع الخصـلة السيئة ممن ينازعنا ويؤذينا بالخصلة التي هي أحسن وهي الحلم والتؤدة والتثبت .

وجوب دفـع الخصـلة السـيئة بالخصلة الحسنى

فانك اذا صبرت على سوء أخلاق عدوّك مرة بعـد أخرى ، ولم تقـابل سفاهته بالغضب ، ولا إساءته بالايذاء والايحـاش ؛ استحيا من تلك الأخلاق الذميمة ، وأقلع عن تلك الأفعال القبيحة ، وصار زكيًّا بعد أن كان دَنِسا ، شريفا بعد أن كان خسيسا ، وكاد يكون صديقا بعد أن كان عدوّا ، قريبا مشفقا عليك بعد أن كان أجنبيا : يسره حزنك ، ويشفيه مرضك . فتبدّل البعد قربا ، والجفاء لينا وعطفا ، والفُرقَة اتصالا ، والشقاق اتفاقا ، والاختلاف ائتلافا .

محاسن مقابلة السيئة بالحسنة

وقد قال الله جل ثناؤه آمرا للمؤمنين بالائتلاف ومذكّرا لهم بنعمة الاسـلام : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا »(١) .

---

(١) ١٠٣ — ٣ آل عمران .

(٢٠) الآيــة

قال الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[(١)] » .

التفســــير

المفردات — ابن السبيل : هو المسافر الذى فقد ماله وانقطع عن أهله .

سؤال المسلمين عن أنواع الأموال التى يرضى الله تعالى عن إنفاقها

المعنى — سأل المسلمون حضرة النبي صلى الله عليه وسلم عن أنواع الأموال التى يرضى الله تعالى عن صرفها للمحتاجين . أهى الذهب أم الفضة أم غيرهما من بقية أصناف أموالهم ؟

سبب سؤالهم

والذى دعاهم الى هــذا السؤال هو شــدّة شفقتهم وعطفهم على المحتاجين من إخوانهم المسلمين ، فلم يكن غرضهم من هــذا السؤال مجرّد الإنفاق و إخراج الأموال من ملك أيديهم ولو باعطائها

(١) ٢١٥ — ٢ البقرة .

الى غير مستحقيها ، بل انمـا كان مطمح نظرهم إغاثةَ المضطرين وسدَّ حاجة المحتاجين ، وبرَّ إخوانهم فى الدين .

اجابة الله سبحانه عن سؤالهم

لهذا لم يجبهم الله تعالى ببيان أصناف الأموال التى يكون منها الانفاق ، بل أجابهم ببيان الأصناف التى يكون لها الانفاق ، تعليما لهم وإرشادا الى أن الأجدر بهم إنما هو السؤال عن المصارف التى ينبغى أن يصرفوا فيها أموالهم .

بيـان ما يجب أن يحصل قبل الانفاق

ثم انه سبحانه قبـل أن يبيّن لهم مصارف الأموال ، بيّن لهم أنه يجب أن يكون هـذا الذى ينفقونه خيرا ، بأن يكون كسبهم له كسبا حلالا لا تبعة فيـه ، وأن يكون إنفاقهم له إنفاقا خالصا لله تعالى ، شكرا له سبحانه على تفضله به عليهم ومؤاسـاة وبرا بإخوانهم المؤمنين .

عـدد مصـارف الأموال التى يأذن الله تعالى بها

ثم بيّن مصارف أموالهم بعد ذلك ، فذكر منهـا أوّلا خمسة تفصيلا ، ثم ذكر ثانيا غيرها إجمالا كما ستعرفه

تفاوت الأصناف الذين تصرف لهم الأموال

جميع هؤلاء الأصناف مع اشتراكهم فى الحـاجة إلى المعونة والمؤاساة ، هم متفاوتون فيهـا وفى وصية الله تعالى بهم ؛ فلذلك

ذكرهم الله تعالى مُرتَّبين بحسب أوليتهم فى الرعاية والتقديم على غيرهم .

وصية الله تعالى الانسان بوالديه احسانا

فالصنف الأول — الوالدان : الأب والأم وصى الله عز وجل الانسان بوالديه إحسانا ، وأوجب عليه أن يَبَرّهما ، ويحسنَ طاعتهما ، ويتحرّى ما يحبانه ويتوقى ما يكرهانه ، ويوصّل لهما كل خير : فمن ذلك مؤاساتهما بماله والانفاق عليهما ، والقيام لهما بكل ما يحتاجان إليه من ضروريات المعيشة وكمال الحياة ورفاهيتها .

عجز الولد عن مكافأة الوالدين وسببه

إذا أنفق أحد منا على والديه ما أنفق ، أو إذا بذل لهما ما استطاع من البر والاحسان ، فلا يتوهمن أنه كافأهما على برهما به ، وإحسانهما إليه وشدّةِ ما قاسياه فى صغره ، وتحملاه فى تربيته ، وكابداه فى حفظه ورعايته . وصبرا له صبرا جميلا ، فى تعليله والسهر له ليلا طويلا ، والعناية به كل آنٍ ، والمحافظة على سلامته ، والحرص على إرضائه ، والجدّ مع الاخلاص فى قضاء مصالحه ومطالبه وسائر ما يرضيه .

شفقة الوالدين على الوالد فطرة فيهما

هكذا فطَر الله سبحانه الوالدين، وجعلهما أشفق الناس على ولدهما وأرحمهم وأرأفهم به ، ولا سيما الأم ؛ فإن لهـا النصيب الأعظم فى الحنو والعطف، والحظّ الأوفر فى احتمال المشاق والمتاعب، من الحمل والرضاع وما يتلوهما ، وما مِنّا من أحد يجهل ذلك أو ينساه .

معنى الأقربين

الصنف الثانى — الأقربون ، وهم كل من يتصل بالانسان بصلةٍ ما من صلات النسب . كالأبناء والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وذرّياتهم .

سبب طلب صلتهم

ذلك لأنهم جميعا أغصان وأفنان تفرّعت من شجرة واحدة ، فهم فى تعدّدهم وكثرتهم شيء واحد، وهم فى تفرّق أجسامهم مجتمعون، وفى تباعد مواضعهم قريبون .

ولذلك كانوا أوّلَ من ينادَوْن فى الملمات، وكانوا أسبق المجيبين، وأسرعَهم فى الاغاثة، وأخلصهم فى التدبير، وأكرمهم فى بذل المال والجاه وما إلى ذلك من وسائل دفع الأذى عن ذوى القربى .

لا جَرَمَ إذًا انهم يكونون فى منزلة قريبة من منزلة الوالدين ، فكانوا أحق من غيرهم بالانفاق والاحسان فى المعاملة .

معنى اليتيم

الصنف الثالث — اليتامى : وهم كل صغير أو صغيرة لا أب له ، وإن كان ذلك اليتيم غنيا ، لكن المراد منه فى الآية الكريمة اليتيم المحتاج . أجاب الله عز شأنه السائلين بأن اليتيم مصرف من مصارف الأموال . يأمر الله الأغنياء أن ينفقوا عليه من فضل أموالهم . شكرا له تعالى ، واستزادة منهم لاحسانه عليهم . كما وعد الله سبحانه الشاكرين ذلك فى قوله : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (١) .

سبب وجوب رعاية اليتيم

حقا — إن اليتيم جدير بأن يكون موضع رعاية الأغنياء وعنايتهم بشأنه : يقومون له بحاجاته ، ويعنون بالانفاق عليه ، ويتعاونون على تربيته وتعليمه ، وتثقيفه وتهذيبه ، حتى ينشأ نشأة حسنة ، ويؤنسوا منه رشدا ، ويروا فيه رجلا كاملا صالحا ، جديرا بأن يستقل بشؤونه ، أهلا لأن ينافس غيره فى معترك هذه الحياة .

---

(١) ٧ — ١٤ ابراهيم .

براءة اليتيم مما يقتضى اهماله وعدم الاعتناء به

ألم يعلم النـاس وخاصة الأغنياء ، أن اليتيم لم يرتكب جُرما يعاقبُ عليه بإهمال الموسرين له ، وتركه هائما على وجهه : لا ولىّ يتولى أمره ، ولا ناصر ينصره على فقره ويُتْمه ؟

ألم يعلموا أنه ما من والد إلا وولده عرضة لليُتْم والفـاقة من بعده . وقد قال الله تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ »(١) .

الأضرار المترتبة على اهمال اليتامى

ألم يعلموا أن اليتامى لا تُحْصَى كثرتهـم ، فلو تركهم الأغنياء مهمَلين ، وقبضوا أيديهم عن الانفاق عليهـم ، وفرّطوا فى حسن تربيتهم ، ولم يَحُوطُوهم بحراستهم وتقويمهم ، لَنَشئوا على كثرتهـم مفسدين ، لا عمل لهم إلا ارتكاب الموبقات ، وانتهاك الحرمات ، والسعى فى الأرض بالفساد . ؟

تبعة اهمال اليتامى جريمة واقعة على الأغنياء

ألم يعلم هؤلاء الأغنياء أن اللوم حينذاك انمـا هو واقع عليهم لا على اليتامى ؛ لأنهـم هم الذين فرّطوا وأهملوهم ، فنشئوا هـذه النّشْأة السيئة : « فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا »(٢) .

(١) ٩ — ٤ النساء . (٢) تكملة ٩ — ٤ النساء .

معنى المسكين

الصنف الرابع — المساكين، وهم الذين لا يجدون ماينفقون. فنهم من لا يجد كثيرا ولا قليلا، ومنهم من يجد قليلا لا يفى بحاجته، ولا يشفى من علته، ولا يُروى من غُلّته؛ وكلا الفريقين مسكين ذو مَتْرَبة(١) وكل يوم من حياته يوم ذو مَسْغَبة(٢).

الضرر الناشئ من بخل الأغنياء على الفقراء

اذا ضَنّ الأغنياء بالقليل من أموالهم، وبخِلوا بالنزر من ثروتهم، وغَلّوا أيديهم الى أعناقهم، ولم يبسطوها بالبذل الذى يرضاه الله تعالى، الى هؤلاء البائسين الفقراء، بل تركوهم فريسة بين يدى الفاقة، وجعلوهم طُعْمة سائغة بين أنياب الفقر؛ فما أشقى الأغنياء حينئذ بهؤلاء المساكين، وما أتعس النوعَ الانسانىَّ بشرور هذا الصنف على فقره ومسكنته وضعفه.

نَعَمْ سيصبح هذا الصنف وهو السواد الأغلب فى الناس جيشا كثيفا قد خلق الفقر فيه جرأة وإقداما، وبدّلت الفاقة فيه من الضعف قوة وصلابة، وفَتَقَتْ فيه الحاجة من الخمول والخمود حيلةً ومكرا ودهاءً فاستباح لنفسه أكل أموال الناس

(١) المتربة: الفقر. (٢) المسغبة: الجوع.

بالباطل، لا فرق عنده إذ ذاك بين غنيٍّ وفقير، ولا أمير ولا حقير، ولا كبير ولا صــغير . فاذا قــدر على السرقة سرق ، واذا استطاع الغصْب غَصَب، واذا أحكم الحِيَـــل والدعاوى البــاطلة احتال وادّعى زورا وبهتانا .

وكثيرا ما تألّبَتْ منهم الجموع، وتألفت منهم المناسر، وأعدّوا ما استطاعوا من قوّة، وهاجموا البُلدان والقُرى : فسلبوا الأموال، وأسالوا الدماء، وأزهقوا الأرواح، وهتكوا الأعــراض ، وقطعوا الطرق على السابلة، وأزعجوا المطمئنين، وأخافوا الآمنين، وأثقلوا كاهــل القضاء بجرائمهم، وشغلوا الحكومات عن التفرّغ لمصالح النــاس .

ان هذا الصنف داء فتّاك عظيم الخطر، ولكن الأغنيــاء هم أطباؤه المــاهرون ؛ فعليهم أن يرجعوا الى ما أرشدهم الله تعالى اليه، ويفعلوا ما يؤمَرون : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ »[1] .

---

(١) ٣٦ — ٦ الأنعام .

ابن السبيل

الصنف الخامس — ابن السبيل، وهو المسافر الغريب الذى نَفِدَ ما كان معه من نفقة السفر، وتعذر عليه الوصول الى وطنه وأهـله — فلكونه غريبا منقطعا عن أهـله مجهولا — أضيف الى السبيل . وهو طريق السفر . فقيل له : ابن السبيل . لأنه لم يعرَف إلّا به .

بيّن الله تعـالى للسائلين أن فى مال الأغنياء حقا ثابتا لهـذا المسافر يجب أن يُمِدّوه به، ويغيثوه ببـذله له، حتى يسـتطيع العودة الى أهله، ويتمكن من الرجوع الى وطنه .

حكمة الله تعـالى فى إيجاب بذل المال لابن السبيل

ان الحكمة الإلهية فى شرع هذا الحكم للناس واضحةٌ جليـة؛ فان الأغنياء ان لم يدركوا هـذا المسافر المحتاج، ولم يسعفوه بسَـدِّ خَلّتِه . زادت حياته سوءا على سوء، وانتهى أمره الى ما لا يرضاه الله ولا الناس، فتدفعه الحاجة إمّا الى السرقة وسلب أموال الناس وأكلها بالبـاطل، فيكون عرضـة لغضب الله تعالى وسخطه، مستحقا لعقاب السارقين والمفسدين، وإما الى أن يَبْخَع نفسه، ويزهق روحه، زاعما أن هـذا يريحها ويخلّصها من عناء الفقر، ولكنه قد غفل عما وراء ذلك من العذاب الغليظ .

الأصناف الأخرى إجمالا

أما الأصناف الأخرى — فقد ذكرها الله تعالى مجملة فى قوله الكريم : « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » . فشمل جميع مصارف الخير، وسائر جهات البر والمنافع، سواء أكان ذلك الخير خيرا خاصا أم عاما ؟ وسواء أكان ببذل المال أم بغيره ، كالجاه والنصيحة وغيرهما ؟ .

علمه تعالى بفعل الخير وإثابته عليه

ثم أن الله جلت أسماؤه أرشد عباده الذين يفعلون الخير الى أنه يعلم ما يفعلون من أنواع الخير والبر ، لا يخفى عليه سبحانه شىء منها ، قَلَّ أو جَلَّ، ثم يثيبهم عليها . ويُوفّيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

(٢١) الآيات

قال الله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (١) .

(١) ٣٣ الى ٣٥ — ٣٦ يس .

التفســـــير

المفردات ــ فجّرنا : شققنا وأخرجنا ــ سبحان : كلمة معناها تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به ــ الأزواج : أجناس الأشياء وأنواع المخلوقات .

حكمة ارسال الرسل

المعنى (١) قصّ الله عز وجل . علينا قبل هــذه الآية الكريمة . أنه أرســل رسله الصادقين الى عباده ، فبلّغوهم عنــه سبحانه، ما تصلُح به أحوالهم فى الدنيا والآخرة، وأنه يبعثهم بعد موتهم : « لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[(١)] .

افتراق النـاس فى الايمان بالبعث

فمنهم من آمن وعمل صالحا، ومنهــم من لم يؤمن وأنكر الحياة الثانية بعد الموت، استبعادا لهــا، واستعظاما لشأنها ، ولكن الله (اللطيف بعباده) أرشدهم الى الصواب، ووجّههم الى ما هو أمامَ بصائرهم . وهو الأرض الميتة، وآثار صنعه تعالى فيها .

---

(١) ٣١ ــ ٥٣ النجم .

الأرض الميتة آية صادقة على البعث

فبيّن لهم أن الأرض الميتة القفرة التى لاماء فيها ولا نبات ، آيَةٌ وعلامة لهم ، تدلهم على أن بعث الله تعالى لهم بعد موتهم أمر ممكن هيّن على الله تعالى، لا تَعْجِزُ عنه قدرته سبحانه ، فَمَثَلُ بعثهم بعد موتهم كمثل الأرض الميتة سواء بسواء .

وجه دلالة الأرض الميتة على صدق البعث

ثم بعد أن ذكر الله سبحانه أن الأرض الميتة آية لهم على بعثهم . أرشدهم الى كيفية كونها أمارةً ودليلا، تقرب اليهم ما استبعدوه ، وتُثْبت لهم صحة ما أنكروه . فقال : « أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » أى أنه جلت قدرته ، أحيا الأرض الميتة بانزال الماء عليها ، وسوقِهِ اليها ، فأصبحت بذلك مخضرة نضرة، قد أنبتت من كل زوج بهيج، وأخرجت باذن ربها حبا مُتَرَاكِبًا، أجناسا مختلفة ، وأنواعا متباينة ، فمنها يأكلون ، ويعيشون عيشة راضية، ويَحْيَوْن حياة الخصْب والرخاء، كما قال تعالى: « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ(١) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ . أَفَلَا يُبْصِرُونَ(٢) » . وكما قال :

(١) اليابسة الجافة ، لا ماء فيها ولا نبات . (٢) ٢٧ — ٣٢ السجدة .

« فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ . كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى . وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(1) .

(٢) وبعد أن بيّن سبحانه . أنه أحيا الأرض الميتة ، فأخرج منها الحَبّ : أجناسَه وأصنافه ، فمنه أكلوا وعاشوا ، وأخصبوا وحُفِظَت حياتُهم ، بيّنَ لَهم فى الآية الثانية أنه كذلك رفَّهَهُم ونعّمهم ، فجعل لهم فى تلك الأرض الميتة جناتٍ وبساتين ، وحدائق ذاتَ بهجة : فأنبت لهم فيها النخيل والأعناب ، فكان لهم منها مآكلُ ومشاربُ ومرافقُ كثيرةٌ ، سيأتى بيانها .

ترفيه الله تعالى العبادة بجنات الدنيا

ثم بيّن لهم الروح التى أحيا بها الأرض الميتة ، وهى الماء الذى أنزله سبحانه من السماء ، ثم أسكنه فى الأرض ، وفجّرها بعد ذلك عيونا ، فتفتّحتْ وتشقّقتْ ، وانبثق الماء يجرى بمقدار الى الأرض الجُرُز ، فاهتزّت بنباتها ، وربَتْ ببركاتها وجنّاتها ، وأنبتت من كل زوج كريم .

الروح التى أحيا الله تعالى بها الأرض الميتة

(1) ٥٠ — ٣٠ الروم .

حكمـة الله تعالى في تفضله باحياء الارض الميتة

كل ذلك تفضّل الله الكريم به على عباده؛ لِيَحْيَوْا في هذه الدار الحياةَ الطيبةَ ويعيشوا العيشةَ الراضية. وهذا هو قوله تعالى : « لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » .

أى انما تفضلنا على عبادنا بجعلنا فى الأرض الميتة جناتٍ من نخيل وأعناب وتفجيرِنا فيها من العيون ؛ لينتفعوا بالأكل من ثمر ذلك الجَعْل والتفجير ونتائجه ؛ ولينتفعو أيضاً بما عملته أيديهم واستخرجته، من ثمرات النخيل والأعناب : كالعسل والخل وغيرهما .

الانتفاع بثمرات النخيل والأعناب أنواع

ثم ان الانتفاع بثمرات النخيل والأعناب كما يكون بالأكل يكون بغيره : كالشرب والتداوى والتفكُّه والترفُّه ، كما ذكر بعض ذلك فى آيات أخرى، والاقتصار فى هذه الآية على الأكل ؛ لأنه قِوَامُ الحياة وعِمَادُها . كل هذه النعم العظيمة يعلمها الناس جميعهم ،

غفلة الناس عن شكر هذه النعم

وهى ماثلة أمام أعينهم، ولكنهم عن الوفاء بحقوقها عليهم لَاهُونَ، وعن شكر الله المنعِم بها غافلون ؛ فلهذا أنكر عليهم سبحانه

إنكار الله تعالى عليهم تفريطهم فى شكرها

تفريطَهم فى القيام بحقوقها ، وعاتبهم على إهمالهم شكرَها ، مع

علمهم بها، وتقلُّبِهم فيها فقال : « أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ » أى أيعرفون هذه النعم الفضلى ؟ وينتفعون بها الانتفاع الكثير ، فلا يشكرون الله الذى تفضل عليهم بها، ولا يستعملونها فى الوجوه التى أمرهم باستعمالها فيها . بل خالفوا وضلوا سواء السبيل .

ترشد الآية الى أمور

(٣) أما الآية الثالثة ، فانها ترشد المتفكرين فيها الى عدّة أمور، منها :

(١) أنها تجعلهم يتعجبون من غفلة النـاس عن عِظَمِ نعم الله تعـالى عليهم . ومن تفريطهم فى أداء ما وجب عليهـم من شكرها، مع أن شكر النعم مستوجب لزيادتها ، وأَن شكرها واجب فى حكم الله تعالى وفى الفطرة الانسانية، ومنها :

(٢) تنزيه اللهِ (الكبير المتعالى) عن أن يقابل عبادُه الفقراءُ اليه، نِعَمَهُ عليهم بالاهمال والكفران وعدم الشكر ، ومنها :

(٣) التنبيـه على عظم نعتـه سبحانه ، وجلال صفته التى ستُذْكَرُ بعدُ ، وهى خَلْقهُ الأزواج كلهـا التى هى ما تُنْبِتُـه الأرض ، وأنفسهم ، وما لا يعلمونه ، فانها تدل المتبصرين فيهـا

على بدائعَ آثار قدرته تعــالى ، واسرار حكمته ، وجلال نعمته .
وكل ذلك يوجب على النــاس أن يقوموا له بالشكر ، ويَخُصــوه
بالعبادة ، لا يشركون به أحدا .

معنى الآية الكريمة

والمعنى — أن الله سبحانه يُنَزِّهُ نفسَــه عن أن يعامله عبــادُه
الفقراء اليه هــذه المعــاملةَ الممقوتةَ شرعا وعقلا ، وكذلك يُلَقِّنُ
المؤمنين و يأمرهم أن يقولوا كما قال : أى يقولوا : «سبحان الذى
خلق» . الآية وأن يعتقدوا ما تضمنته ، وأن يحرصوا على العمل
به ؛ ليكونوا من الشا كرين .

بيان أن الأزواج فى الآية ثلاثة

ثم أنه تعالى بيّن هذه الأزواج ، فعرّفَنَا أنها ثلاثة أزواج :

الأزواج الأولى — هى جميع ماتنبتــه الأرض : من الحب
والنخيل والأعناب المذ كورة فى الآية المتقدّمة ، ومن غيرها المذ كور
فى آياتٍ أُخَرَ .

الأزواج الثانية — هى أصناف الناس ، كالذ كور والاناث ،
وكالأمم التى يشابه بعضها بعضــا فى خَلْق أو خُلُقٍ ، وكالشــعوب
والقبائل المتباينة التى تُخالف فى شىء من ذلك .

الأزواج الثالثة — هى المخلوقات التى لم يَطَّلِع عليها النـاس فلم يعرفوا ذواتها ، أو صفاتها وخواصّها ، كالكهرباء وغيرها ، قبل أن يهدىَ اللهُ العبادَ اليهـا و يرشدهم الى خواصها وآثارها ، ومثل هذا قوله عز وجل : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١) .

(٢٢) الآيات

قال الله تعـالى : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ . يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ . وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ » (٢) .

التفسـير

المفردات — عاد : إحدى الأمم العربيـة القديمة فى الأيام الخالية وبلادُها الأحقاف من أرض اليمن — وهود : صلى الله عليه

(١) ٨ — ١٦ النحل .   (٢) ٥٠ الى ٥٢ — ١١ هود .

وســلم نبيّهم وكان منهم ، وهــذا معنى أنه أخوهم ، كما هى عادة العرب — فَطَرَنِى : خلقنى — السماء : معناها هنـا المطر — مدرارا : كثيرا غزيرا — لا تتولّوْا . لا تعرضوا .

ذكر الأمم الأولى فى القرآن وحكمة ذلك

المعنى : قد جرت ســنة الله تعــالى فى قرآنه الحكيم ، أن يَقُصَّ على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، أَخْبَارَ المرسلين الأوّلين مع أممهم، وذلك لحكم جليلة بالغة . منها :

(١) تخفيف الشــدائد والمتــاعب التى كان يلاقيها الرسولُ سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه فى سبيل الدعوة الى الدين ونصره ؛ فان من كان قبلهم من الرســل الكرام وأصحابِهم قد لَاقَوْا مثل ما لَاقَوْا . ومنها :

(٢) تثبيت أفئــدتهم ، وتســكين قلوبهم ، وطَمْأَنَتُهــا . فلا يملكها عليهم فَزَعٌ أو قَلَقٌ أو ضَجَرٌ . ومنها :

(٣) تحبيب الصبر على احتمال المكاره والكوارث ، اقتداءً بالأوائل من الرسل والمؤمنين، وابتغــاءً لأداء ما كُلِّفُوه من الدعوة الى الله عز وجل . ومنها :

(٤) الاعتبار والاتعاظ بما جرى على الأمم الأولى الذين جحدوا بآيات ربهم ، وعَصَوْا رسله فكانت عاقبة أمرهم خُسْرًا . ومنها :

(٥) الوثوق بصدق وعد الله لهم بأنه سَيَخْذُلُ أعداءهم ، ويعاقبهم على عصيانهم وتكذيبهم ، وبأنه سينصرهم عليهم ، ويُورِثُهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم ، ويمكِّنُ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم . كما قال : « ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا ، وَالَّذِينَ آمَنوا . كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِين » (١) .

اختيار رسول القوم منهم وحكمته

كان سيدنا هود صلى الله عليه وسلم أحد أولئك الرسل الكرام الأولين . اختاره الله العليم الحكيم ، واصطفاه من قومه لأن يكون رسولا اليهم ، يبلِّغهم عنه ما أراد من دينه القويم .

فانظر اذًا الى حكمة الله البالغة أَنْ جعل رسولهم منهم لا من غيرهم ؛ لأنهم أعرفُ الناس به ، وأدراهم بأحواله وسيرته وأخلاقه

---

(١) ١٠٣ — ١٠ يونس .

وسائر شئونه ، وأفهمُهم لكلامه ، وأسبقُهم الى إدراك مقاصـــده وأغراضه ، وأوْلَاهُم باتباعه ، وأحَقُّهم باقتفاء آثاره .

الدين الذى بلغـه سـيدنا هود وقيامه به

أرسل الله عز وجل . الى عاد أخاهم هودا ، فاضطلع[1] بالرسالة ، وصَدَعَ[2] بأمر ربه ، وطلب الى قومه ، أن يعبـدوا الله ، ويخصُّوه وحده بالعبادة : لا يُشْرِكون به شـيئا ، ولا يجعلون معه إلها آخر ، من مَلَك أو إنسان ، أو كوكب أو شجر ، أو تمثالا من ذهب أو حجر .

معنى عبـادة الله تعالى

وعبادة الله تعالى : هى الخضوع الكامل لعظمته ، وخشوع القلب خشوعا تاما لقدرته وهيبته ، مع ملاحظة النفس أن الذى تعبده قد أحاط علمه بمـا ظهر منها وما بطن ، وأن قدرته نافذة فيها ، لا يُعْجِزُها شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا تقدر النفس أن تدرك حقيقـة ذلك المعبود الأعظم ، ولن تستطيع الى محاولة ذلك سبيلا .

---

(١) تحملها وقام بها حق القيام .

(٢) بلغها بقوة وعزم و بيان أوضح .

علامة العبادة

والعلامة التى تدل على أن النفس قد عبدت الله تعالى تلك العبادة الصحيحة، هى الأعمال البدنية الظاهرة، وهى أداء حقوق الله تعالى، وأداء حقوق العباد .

السبب الذى يوجب عبادة الله تعالى وحده

هذه هى العبادة التى أمر سيدنا هود صلى الله عليه وسلم قومه بها . ثم بيّن لهم السبب الذى لأجله وجب عليهم أن يعبدوا الله وحده هذه العبادةَ . وهو أنه ليس لهم إله غيره . فهو وحده إلههم الذى خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، وهو دون سواه ربُّهم، الذى يربّى نفوسهم بالدين الحق والعلم الصحيح، ويؤدّبهم بالعقوبات الدنيوية ؛ لينكَفُّوا عن المعاصى، ومخالفةِ الأوامر الإلهية ، كما أنه يربّى أبدانهم ويُنَمِّيها بما أخرج لهم من الطيبات من الرزق .

فلا ريب إذًا أن يكون الله عز وجل هو إلَهُهُمْ الواحد ، لا ندَّ له ولا شريك .

بطلان عبادة غير الله سبحانه

ثم صارحهم بعد هذا البيان ، بأن هذا هو الحكم الحقُّ ، والقول الفصل ، وأن ماهم عليه ضلال وباطل ، وكذبٌ على الله

وافتراء عليــه . وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم لهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » فى دعواكم أن مع الله آلهةً أخرى .

وبعد أن أرشدهم الى عبادة الله تعالى وتوحيـده، وبيّن لهم الدليـل على ذلك وهو أنه ليس لهم إله غير الله ، وعرّفهم أنهـم كاذبون فيما زعموه من أنّ لهم آلهةً مع الله تعالى .

صدق سيدنا هود فى دعوته واخلاصه ودليله على ذلك

(٢) بعد هـذا كله أخبرهم فى الآية الثانيـة أنه مخلص لهم فى النصيحة ، صادق فيما دعاهم اليـه ، وأن دليله على ذلك أنه لا يطمع فى نفع يسعى اليـه ، ولا يسألهم أجرا على نصيحته لهم ، ولا يبتغى بذلك إلا جلب الخـير العظيم لهم فى الدنيـا والآخرة ، ولا أمل له فى المكافأة على تبليغ الرسـالة ، وإمْحَاض النصـح (١) ، إلا فى فضل الله تعـالى ، الذى أكرمه بالرسالة ووعده حسن الثواب عليها .

بيـان أن مكافأته انما هى من الله تعالى

سبب مجاهرته لهم بذلك

جاهرهم بذلك ، حذرا مما عسى أن يتوهموه ، من أنه يتوسل بهـذه الدعوة الى شىء من المنافع الدنيوية ؛ فإن تلك الوسـيلة

(١) إخلاصـــه .

مرض أصاب النفوس قديما وحديثا : فترى الرجل يظهر فى مظهر الصلاح والتقوى، ودعاءِ الناس الى طاعة الله تعالى وعبادته ، ولو اطّلَعْتَ على ما فى قلبه، لوجدت الدنيا هى معبودَه، والمال حَشْوَ ضلوعه .

مجاهرة كل رسول قومه بذلك

فلهذا — جاهر سيدنا هود صلى الله عليه وسلم قومه بهذه المقالة ، بل ما من رسول إلا جاهر قومه بها ؛ لما شرحناه لك من قبل .

أنكاره على قومه تكذيبهم

ثم إنه صلى الله عليه وسلم أنكر عليهم تكذيبهم له، ووبّخهم على رفضهم إخلاصه فى نصيحتهم وعَجَّبَ العقلاء من سوء ظنهم فيه فقال : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . أى أَأُعلن لكم أنى لا أسالكم أجرا على نصيحتى لكم، فلا تعقلون أن النصيحة التى لا يسأل صاحبها أجرا عليها يجب أن تُقْبَلَ وتُمْتَثَلَ ؛ لأنها لا تحوم حولها شائبة من المطامع الدنيوية .

بيان كيفية الخلاص من ضلالهم والتقرب الى الله تعالى

(٣) ثم انه بعد أن ذكر لهم ما يوجب اقتناعهم وقبولَهم لدعوته وتصديقَهم له ، شَرَحَ لهم فى الآية الثالثة كيفية الخلاص

مما هم فيه من الضلال، وكيفية التقرُّب الى ربهم ؛ لينالوا غفرانه ورضوانه، وذلك يكون بأمرين :

بيان أن ذلك بأمرين

(أولهما) أن يطلبوا اليه سبحانه أن يغفر لهم ما سقطوا فيه من الشرك، ويمحوَ عنهم قبحَ ما عكَفوا عليه من وصَمات المعــاصى ؛ وذلك بأن يُقْلِعوا عن عبادة آلهتهم الباطلة، ويطهّروا نفوسهم من دنَس الذنوب التى هم عليها عاكفون .

(ثانيهما) أن يتوبوا الى الله عز وجل، ويرجعوا اليه خاشعين خاضعين ، ويتقربوا اليه بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وفعل الصالحات والجِدِّ فى الطاعات، عسى أن يتفضل عليهــم ، ويقرّبَهم اليه زُلفى، والله ذو الفضل العظيم .

مسلكه . ص . فى هداية قومه أجل مسلك

فمن هذا يتضح لك . أن ما سلكه رسول الله هود صلى الله عليه وسلم . فى هداية قومه هو أمثل طريقــة وأحكمها ، وأقرب وسيلة إلى تليين القلوب القاسية، وأرجاها فى الاستماع الى الحق، والإيمــان به .

هذا المسلك الحكيم معهود بيننا

ألا ترى : ان من أساء اليك ثم ندم على إساءته ، يُقْلِع أوّلا عن إساءته ويطلب إليك أن تعفوَ عنه؛ لينْجُوَ من عقابك ، ثم يتقرّب اليك ثانيا بما ترغب، لينال منك رضاك عنه .

بعض النتائج الحسنة المترتبة على عملهم بما أرشدهم اليه

وبعد أن أرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الخلاص ، وكيفية التقرّب إلى الله عزّ شأنُه شَرَح لهم بعض النتائج الحسنة المترتبة على ذلك (وهى المنافع الدنيوية) وإنما اقتصر عليها أوّلا ولم يذكر لهم المنافع الأخروية مع أنها خير وأبقى؛ لأن القوم لا تزال نفوسهم آبقةً منه، معاديةً لدعوته، وقلوبُهم منكرةً لرسالته، مرتابة فى نصيحته .

هذه المنافع التى رغبهم بها نوعان

تلك المنافع نوعان :

(الأوّل) ان الله المنعم يرسل على أرضهم المطر المدرار الكثيرَ الغزير الصيّب ، فترْوَى الأرض بعد ظَمَئها ، وتلين بعد يبسها، وتهتز بنباتها، وتربو بعد جفافها ومُحُولها : كما قال تعالى شأنه : « هُوَ الَّذى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ

فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (١) .

(الثـانى) انـ الله سبحانه يضاعف قوتهم ، فيهبهم قوة مضافة الى قوتهـم التى هم فيها ؛ وذلك أنهـم متى كانوا فى حياة طيبـة ، وخِصْب ورخاء ، زادت قوتهـم وتضاعفت ، وعظُم شأنهم، وضخم أمرهم .

القوّة التى وعدهم بها أصناف

ثم ان القوّة التى وعدهم بهـا رسولُهم صـلى الله عليه وسـلم أصـــنافٌ :

فمنها : قوّة أبدانهم ، وصلابةُ أعضائهم بسبب كمال سلامتهم وصحتهـــم .

ومنها : قوّة أمتهم، بوَفْرة عددهم، وكثرة نسلهم .

ومنها : قوّة مداركهـم ، ورجاحة عقولهم بسبب عظم صحـة أبدانهم ، وصحة ما جاءهم من العلم والدين القويم ، على لسان رسولهم صلى الله عليه وسلم .

(١) ١١ — ١٦ النحل .

نهيه لهم عن الأعراض عن نصيحته

ثم بعد أن بشرهم صلى الله عليه وسلم بحسنِ العاقبة اذا استغفروا ربهم، وتابوا اليه، نهاهم عن الاعراض عما نصحهم به، وأرشدهم اليه، مصِرّين على إجرامهم مصممين على ضلالهم وإشراكهم : ﴿ وَاللّٰهُ يَقُولُ الحَقَّ . وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ [1] .

---

(١) ٤ — ٣٣ الأحزاب .

ما يحفظ من الأحاديث

شرح الأحاديث التى فى المنهج

الحـــديث الأوّل

قالَ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أكَلَ طيِّبا وعَمِل فى سُنَّةٍ وأمِنَ الناسُ بَوَائِقَه دخَلَ الجنَّةَ . قالوا يا رســول الله إنّ هذا فى أُمّتك اليومَ كثيرٌ . قال : وسيكونُ فى قُرونٍ بعْدِى » .

الشـــــرح

من أكل طيبا : الطيب الحلال، والمراد بالأكل ما يشمل وجوه الانتفاع الأخرى كاللبس وغيره . وعمل فى سنة : السـنة الطريقة أى عمـل فى حدود الطريقة الدينيـة التى بينهـا الرسول صلى الله عليه وسلم . وأمن الناس بوائقه : جمع بائقة وهى الدّاهية وفعلها باق يبوق، وباقَه الشر أصابه . أى أمن الناس شروره وأذاه .

بين الرسول فى هذا الحديث أمورا يدخل الله تعالى من اتصف بها الجنة دار الثواب والنعيم الأبدى وهى :

(١) من الترغيب والترهيب للنذرى رواه الترمذى .

(الأوّل) أن يكون كسب المسلم من حلال : من صناعة، أو تجارة ، أو زراعة ، أو غيرها، فينفق على نفسه ومن تجب عليه نفقته مما يكسبه .

(الثانى) أن يكون عمله موافقا للشريعة التى شرعها الله تعالى و بينها رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يبتدع فى الدين ولا يدخل فيه ما ليس منه .

(الثالث) أن يكف لسانه ويده عن الناس فلا يغتابهم ولا يقدح فى أعراضهم ولا ينم بهم ولا يرزؤهم أموالهم أو أنفسهم، فيأمنوا جانبه ولا يخافوا غائلته وشره .

كان كثير من المسلمين يتحلى بهذه الصفات على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا قال من سمع منه الحديث (يارسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير) .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم (وهو الصادق) أنه سيكون فى قرون من بعده من يتصف بهذه الصفات؛ وقد كان ذلك . فلم يخل عصر من أُناس اجتمعت فيهم هذه الحسنات فاستحقوا رضوان الله تعالى وثوابه .

الحــديث الثـانى

قال[1] رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « أربعٌ إذا كُنَّ فيـكَ فلاَ عَلَيْك ما فَاتَكَ مِنَ الدّنيا : حِفظُ أَمانةٍ ، وصِدقُ حديثٍ ، وحُسْنُ خَلِيقَةٍ ، وعِفَّةٌ فى طُعْمَةٍ » .

الشـــرح

(الخليقة) الخُلق والطبع .

(عفــة) هى التنزه والتباعد عن الطمع .

(الطُّعمة) وجه المكسب يقال فلان طيب الطعمة اذا كان مكسبه حلالا . وخبيث الطعمة اذا كان كسبه من حرام .

لا شىء فى الدنيا أفضل من جميل الذكر وحسن الأُحْدُوثة ، فاذا طاب ذِكْرُ المرء وحسُنت سُمعته فلا يحزنه ما فاته فى الدنيا من مال أو جاه أو غيرهما .

وخير ما يرفع ذكر المرء ويعلى شأنه أن يكون أمينا : لا يعبث بمـا يؤتمن عليه ، ولا يضيعه ، وأن يكون صادقا فى قوله ، فبالأمانة والصدق يثق به من يعامله ويرفع مكانته .

---

(١) من الترغيب والترهيب للمنذرى رواه أحمد والطبرانى .

وأن يكون حسن الخلق فى معاملة الناس فلا يؤذيهم، ولا يتكبر عليهم، ولا يغتابهم، ولا ينم بهم، ولا يغمط لهم حقا .

وأن يكون عفيفا فى كسبه فلا يطمع فيما بأيدى الناس، ولا يجعل كسبه من حرام، ولا مما لا يليق به .

اذا اجتمعت فى المسلم هذه الخصال يكون قد اجتمعت فيه كل خلال الخير، ولا يبالى ما فاته من الدنيا بعد ذلك .

الحـديث الثـالث

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [1] «مَنْ غَشّ فليس مِنّى» .

الشـــرح

(غش) الغش عدم الاخلاص فى النصح، وتحسين ما ليس بحسن .

ولهذا الحديث قصة . وهى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على صُبرةِ [2] طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعُه بللا، فقال : ماهذا ؟ يا صاحب الطعام ! قال أصابته السماء، قال : أفلا جعلته فوقَ الطعام ؟ «من غش فليس منى» .

(١) من صحيح مسلم . (٢) الصبرة . الكومة .

أى من غش وأخفى عيب بضاعته فليس ممن اهتدى بهدلي واتبع سنتي وسلك طريقتي .

وذلك أن الدين يدعو الى الاخلاص والصدق فى المعاملة، فيجب على التاجر ألا يُخفىَ عيب سِلعتِه، وكذلك يلزم كلَّ من قام بعمل ألا يُحَسِّنَ منـه ما ليس بحسن، ويخفى منه ما يكون فيـه من عيوب، وإلا كان حائدا عن صراط الدين القويم، غير عامل بما يدعو اليه، فلايكون جديرا بأن ينتسب الى الاسلام والى الرسول صلى الله عليه وسلم .

الحديث الرابع

قال[1] صلى الله عليـه وسلم : « ما مِنْ عبـدٍ يَسْتَرْعِيه اللهُ رَعِيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لِرعيته إلّا حَرّمَ الله عليه الجَنّةَ » .

الشـــــرح

يسترعيه : يجعله راعيا وحافظا .

يجب على كل إنسان يجعـله الله راعيا لقوم ويوليـه أمورهم أن يتعهدهم ويُحسن تدبير شؤونهم، ويحافظ على أنفسهم وأموالهم،

(١) من صحيح مسلم .

ويعدل بينهم ويمنع الظلم عنهم ، فيأخذ لضعيفهم من قويهم ، ويقوم بتعليمهم ما يجب عليهم من أمر دينهم ودنياهم . إن فعل ذلك فقد قام بحقوق رعيته وكان ناصحا مخلصا غير غاش وكان ثوابه عند الله عظيما ، وان قصر فى حق من حقوقها كان غاشا لها ؛ فان تمادى فى غشه ومات وهو غاشٌّ حرمه الله ثوابه وكان عذابه أليما .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إلا حرّم الله عليه الجنة » مبالغة فى الزجر عن الغش ؛ لعظيم ضرره ، والمراد أنه لا يدخلها إلا بعد أن يقاسى أهوال العذاب جزاء غشه وتضييعه حقوقَ مَنْ ولّاه الله عليهم .

الحديث الخامس

قال(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللهَ يَرضَى لكُمْ ثلاثاً ويكْرَهُ لكم ثلاثا : يَرضَى لكم أن تعبدوه ولا تُشْرِكوا به شيئا ، وأن تَعتَصِمُوا بحبْلِ اللهِ ولا تَفرّقوا ، وأن تُنَاصِحُوا مَنْ ولّاه اللهُ عليكم . ويكرهُ قيلَ وقالَ ، وكَثْرةَ السُّؤالِ ، وإضاعةَ المالِ .

(١) صحيح مسلم .

الشـــــرح

يرضى لكم ثلاثا : يثيبكم عليها .

يكره لكم ثلاثا : يعاقبكم عليها .

تعتصموا : تتمسكوا .

بحبل الله : هو القرآن الكريم .

تناصحوا : تخلصوا وتطيعوا .

اشتمل الحديث الشريف على أمور منها ما يرضاه الله ويثيب عليه، ومنها مايكرهه ويعاقب عليه .

فأما الأمور التي يرضاها فهي ثلاثة وهي جُمَّاعُ سعادةِ الدنيا والآخرة وهي :

(الأول) عبادة الله تعالى وحده واعتقاد أنه لا يشاركه في إلاهيته أحد، لأنه الخالق الرازق المحيي المميت المعز المذل المتفرد بالعزة والجبروت ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ﴾ .

وعبادته عزّ وجل تكون باستشعار عظمته والقيام بما فَرَضَ ونَدَبَ إليه من أنواع الطاعات من صلاة وصيام وغيرها .

(الثـانى) الاعتصام بالقرآن الكريم واتباعُ ما جاء فيـه من الأوامر والنواهى، وما اشتمل عليه من الأخلاق والآداب، وعبّر عن القرآن بحبـل الله لأنه السبب الذى يُوَصِّل اليه تعـالى، ويُنجى المتمسكَ به ويحفظُه من السقوط فى هاوية العذاب .

وينبغى أن يكون القرآن الكريم هو الرِّباطُ الذى يجمع المسلمين مهما اختلفت بلادهم وجنسياتهم، فيتحدوا ولا يتفرقوا ولا يختلفوا ويكونوا به أمة واحدة .

(الثالث) المناصحة للحكام وهى الاخلاص لهم وطاعتهم فى غير معصية الله تعالى، وبهـا تقوى الرابطة بين الحاكم والمحكوم فيسود النظام وتعتز الأمة .

وأما الأمور التى يكرهها الله تعالى ويعاقب عليها فثلاثة أيضا :

(الأول) أنه تعالى يكره قيل وقال . والمراد به كثرة الكلام، ونقل كل مايقال، وترديد الاشاعات من غير تَثَبُّتٍ وتمييز لصحيحها من كاذبها؛ فان كثرة الكلام لا تخلو من غلط، وقد قيل : من كثر لغطه، كثر غلطه . وفى ترديد الاشاعات من غير تبيّنٍ مفاسدُ عظيمة .

وقد جاء فى الحـــديث : « كفى بالمرء اثمـا أَنْ يُحَدِّثَ بكل ما سمع » [(١)] .

(الثـانى) كثرة السؤال . فان الله تعالى يكره أن يكثر الانسان سؤال غيره شيئا من ماله خصوصا من يتخذ السؤال حرفة ؛ فإن ذلك يُضْجِر المســئولَ ويَحُطّ من قدر السائل . وفى الســؤال تعويد للكسل وترويج للبطالة وتعطيــل للمصالح . وكذلك يكره الله تعالى أن يكثر المسلم السؤال عن أحوال الناس والاستقصاء لها ما يَعني السائل منها وما لا يَعْنيه ؛ ولا سيما ما لا يحبون أن يطلع غيرهم عليه فان فى ذلك إيذاء لهم . ومن شأن المســلم أن يتجنب ما فيه إيذاءٌ لغـــيره .

(الثـالث) إضاعة المـال .

المـال قوام الحياة به تعـتز الأفراد كما تعـتز الأمم . فيجب الاقتصاد فى إنفاقه ، ولايُنْفَقُ إلا فى الوجوه النافعة ، وفى سبيل البر والخير ، ولا يليق بالعاقل أن ينفقه فيما حرم عليه ، أو يسرف فيه ويبذره حتى فيما أُحِلّ له ، فان الله لا يحب المسرفين .

---

(١) صحيح مسلم .

الحـــديث السادس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[1].

الشـــــرح

التناجى: التكلم سرّا.

نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس إذا كانوا ثلاثة أن يختلى اثنان منهم فينفردا عن الثالث، ثم يتَسارا بالكلام فيما بينهما خشيةَ سماعِه له وعلمه بحديثهما.

نَهَى عن ذلك، ثم أَوضح الحكمةَ البالغة التى استوجبت ذلك النَهى، فبيّن أنها التحاشى عن إحزان أخيهما الثالث وإيحاشه، أو إيهامه أَنه ليس أهلا لسماع سرهما، أو أَنّ ما يتسارّان فيه إنما هو لتدبير أمر مكروه يريدانه به.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم أَباح المسارّةَ إذا كثُر العددُ واختلطوا بغيرهم؛ لأن تَناجى الاثنين حينئذ لا يحزن غيرَهما لانتفاء المحذور، وإمكان اشتغال غيرهما بالحديث مع الآخرين.

---

(١) صحيح مسلم.

الحديث السابع

عن بعض الصحابة . قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ والإِثْمِ . فَقَالَ : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ . وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » (١) .

الشـــــرح

حاك الشيء فى الصدر : رسخ . ومضارعه يحوك .

تفسير حسن الخلق

قد فسر النبي صلى الله عليه وسلم حسنَ الخلقِ المذكورَ فى هذا الحديث بقوله فى حديث آخر : «طَلاقةُ الوجهِ ، وكفُّ الأَذَى ، وَبَذْلُكَ المعروفَ : حُسْنُ الْخُلُق » .

جمع هذا التفسير لجميع المحاسن

فسر الرسول البِرّ بأنه حسن الخلق وهو يجمع مَحاسِنَ الصفات ومكارمِ الأخلاق والفضائل . فمنها مخالقةُ الناسِ بالجميل والبِشْرِ والتودّد لهم ، والاشفاق عليهم ، واحتمالهم والحِلمِ عنهم ، وتركِ الكبر والاستطالة عليهم . ومجانبةِ الغِلظة والغضب والمؤاخذة ، والصلة لهم والصدقةِ عليهم ، وحسنِ الصحبة والجِوارِ مع الاخلاص لهم فى كل ذلك .

---

(١) رواه مسلم . باب الأدب من بلوغ المرام .

تفسير النبي ص للاثم

كذلك فسرَ الرسولُ عليه صلواتُ الله وتسليماتُه . الإثمَ بأنه الخاطرُ الذى يحُوكُ فى الصدر ، ويختلج فى النفس ويضطرب ثم يتردّد الانسان حينئذ ، هل يُقْدِم على فعل ذلك الخاطر لأنه لا لومَ عليه ولا تثريبَ . أو يُحجِمُ عنه ويكفُّ خشيةَ العتاب والتأنيب عليه من الله والناس .

وهـذا التفسير النبوى قـد جاء أيضا فى حديث آخر موجز وهو قولُه صلى الله عليه وسلم : «دع ما يَرِيبك الى ما لا يَرِيبُك»[(١)] .

الحـديث الثامن

وقال صلى الله عليه وسلم :[(٢)] «تَجِدُ مِنْ شِرَارِ الناسِ يومَ القِيامَةِ عند اللهِ ذا الوجهين . الذى يأتِى هؤلاء بِوَجْهٍ . وهؤلاء بوجه» .

الشـــرح

مِنْ أكثرِ الناس شرا ، وأعظمِهم ضررا ، وأكبرِهم ذنبا ، وأبعدِهم من الله تعالى يوم القيامة ، المنافق : ذلك الذى يأتى

(١) الامام أحمد عن أنس ـ الجامع الصغير .

(٢) رواه البخارى ـ كتاب الأدب . باب ما قيل فى ذى الوجهين .

الرجل فيتلطفُ له ويظهـرُ له المودّة والمحبـة ، ويَكِيلُ القـدحَ والذمَّ لأعدائه ، حتى يبوح له بمـا فى نفسـه ، ويعرف خبـاياه ، ثم يذهب إلى عدوّه فيتودّد اليـه ، ويتقرّب منه ، ويُظهر البغضَ لأعدائه والولاءَ له ، ثم ينقل اليـه ما سمعه من المساوئ ، وعرّفه من المقابح ، ليسمع منه ما سمع من عدوّه ، وبعـد أن يملأ جعبته يذهب إلى الأول ، وينشر أمامـه أردأ ما فى كنانتـه ، فيكون محضاء[1] لنار الشر بينهما ، فتستحكم العداوة ويزداد النفور .

فيجب على المسلم ترك النفاق والملق .

الحديث التاسع

[2]قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخيرَ كُلَّه .

الشـــرح

الرفق — الرفق فى المعاملة عدمُ العُنف ولينُ الجانب ، والرفقُ فى العمل إحكامُه وإتقانه .

(١) عود تحرك به النار لتضطرم .

(٢) صحيح مسلم .

من كان رفيقا فى معاملة الناس لينَ الجانب لهم يكْسِب رضاهم وينال ودّهم وصداقتهم ومساعدتهم .

ومن كان عنيفا شـديد المعاملة تبعُد عنه القلوب وتنفر منه النفوس، و يكون قليل المعين والنصير «ولو كنتَ فَظًّا غليظ القلب لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك» .

العنيف يكون ثائر النفس لا يستريح ولا يُريح، ثم هو بعد ذلك لاينال بعنفه ما ينال بالرفق واللين، فيفوته خير كثير، وهو بغيض عند الله لشدّته وعنفه، محروم من ثوابه .

والرفق يكون فى العمل كما يكون فى المعاملة، وهو فى العمل إحكامه و إتقانه و إبلاغه حدّ الكمال .

إتقان الأعمال سبب النجاح، والفلاح سواء أكانت الأعمال دينية أم دنيوية . فعلى المصلّى مثلا أن يتقن صلاته فيُتِمّ شروطها، ويقيم أركانها، ويخشع لله تعالى فيها ويستشعر عظمتَه وجلالَه حتى يتقبلها الله تعالى، ويكونَ المصلى من المفلحين «قد أفْلَحَ المؤمِنُونَ الذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ» .

وعلى الصانع وكل ذى عمل من طالب وأستاذ وموظف وغيرهم أن يعنوا بأعمالهم ويتقنوها ولا يقصروا فيها، فينجحوا ويرتقوا فى الدنيا ويَنْعَمُوا بثواب الله تعالى فى الآخرة «إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً»(١) .

فمن يرزق الرفق يرزق خيرى الدنيا والآخرة . ومن يحرم الرفق يحرم خيرى الدنيا والآخرة .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الرفق حتى نفوز بسعادة الدارين .

---

(١) سورة الكهف .

شرح الأحاديث الزائدة على المنهج

الحديث الأول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ . وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »[1] .

الشرح

بعض أوصاف المؤمنين ايمانا صحيحا

المؤمن بالله إيمانا تاما هو الذى يراعى حقوق جاره : فاذا استقرضه أقرضه، وان استعان به أعانه، وان مرض عاده، وان احتاج أعطاه، وان حصل له خير هنأه، وان أصابه شر عزّاه .

وهو الذى يكرم ضيفه : فيقابله بالبشر والسرور و يقوم بما يلزم لضيافته .

(١) البخارى . كتاب الأدب .

وهو الذى يحفظ لسانه فلا يتكلم إلا بمـا يفيد .

الغرض من الحديث الشريف

والغرض هو الحث على إكرام الجـار ، والضيف ، وحفظ اللسان من التكلم بمـا لا يفيد .

الحـــديث الثـانى

وقال : « مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَـدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَـانِ »(1) .

الشـــــرح

وجوب ازالة المنكر بما يستطاع مع عدم التعدّى على سلطة الحـاكم

من شاهد أمرا مخالفا للدين وجب عليه أن يمنعه بيده : كأن يمنع القاتل من القتل والسارق من السرقة ، فان لم يتمكن من ذلك منعه بلسانه : كأن ينهى الشارب عن الشرب ، والسارق عن السرقة ، فان لم يتمكن من ذلك أيضا كره هذا العمل بقلبـه وهو أقل ما يجب . وفى هـذا سر عظيم وهو أنّ الانسـان اذا مقت شيئا لا يفعله ولا تميل نفسه اليه . ولا يمكّن غيره من فعله عند سنوح الفرصـــة .

سرّ هذا التعليم النبوى والغرض منه

---

(1) رواه أبو سعيد الخدرى : الجامع الصغير ، حرف الميم .

والغرض مراقبة الناس بعضهم بعضا ليتبعوا أوامر الدين فيكثُرَ خيرهم ويزول ضرهم .

الحديث الثالث

وقال : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »(١) .

الشـــرح

وجوب فعل الطاعات واجتناب المنهيات

افعل ما أمرك الدين من الطاعات ، واجتنب مانهاك عنه من السيئات ، وفى أى مكان تكون منفردا عن الناس أو مختلطا بهم ، فان الله مطلع عليك فى كل الأحوال .

التطهر من المعصية بعد التدنس بها

وان اقترفت ذنبا وارتكبت إثما فأَتْبع سيئتك بالحسنة ، فان الحسنات يذهبن السيئات ، واذا كان لا بُدّ لك من مخالطة الناس ومعاشرتهم فعاملهم بما تحب أن يعاملوك به .

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى ذر . الجامع الصغير .

الغرض من الحديث الشريف

والغرض المداومة على العمل بالشرع الشريف ، والاكثار من الحسنات ، وحسن معاملة الناس .

الحـــديث الرابع

وقال : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » (١) .

الشـــرح

بعض الآثار الحسنة للاسلام

ان المسلم الذى حسن إسلامه ، يترك الفضول فى كل شىء ، ويجتنب كل مالا يفيـده ، ولا يتدخل فى شئون غيره ، محافظة على كرامتـه ، وامتثالا لأمر ربه ، ومن تكلم فيما لا يعنيه ، سمع ما لا يرضيه .

الغرض من الحديث الشريف

والغـرض الحث على الاشـتغال بمـا يفيـد وترك التدخل فيما لا يعنى .

---

(١) رواه الترمزى عن أبى هريرة . الجامع الصغير .

الحديث الخامس

وقال : «لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ قَبْلَكُمُ ٱخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»(١) .

الشرح

نتائج التفرق

اذا ركب العلماء رءوسهم وساروا فى الدين على أهوائهم ، واختلفوا فيه شيعا ، وساروا على غير هدى ، سخط الله عليهم فهلكوا وهلك من سار على سبيلهم ، وحذا حذوهم . واذا اختلف الناس فى أمور دنياهم ساءت أحوالهم ، ووقفت أعمالهم ، وارتبكت عقولهم ، فلا يحسنون صنعا ، ولا يُجيدون عملا ، وحينئذ تتأخر أحوالهم ، وتنحط نفوسهم ، ويستولى عليهم غيرهم ، فلا يجدون ناصرا ولا معينا .

والغرض : الحث على الاتحاد وترك الاختلاف .

---

(١) رواه ابن مسعود . كتاب الخصومات . باب ما يذكر فى الأشخاص والخصومة . البخارى .

الحـــديث الســادس

وقال : «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»(١) .

الشـــــرح

وجـوب اتحاد المؤمنين وتحريم تفرقهم

لا يكون البنيان متينا إلا اذا كان متماسك الأجزاء قوى الدعائم ، كذلك المؤمنون لا يكونون أقوياء أعزاء إلا اذا اتحدوا وأتلفوا ، أما اذا تفرقوا واختلفوا فتذهب قوتهم وتضعف حالتهم ، ويكونون كالجدار الذى يريد أن ينقض لعدم تماسك أجزائه .

الغرض من الحديث الشريف

والغرض : حث المؤمنين على الاتحاد والائتلاف ليكونوا أقوياء أعزاء .

الحـــديث السـابع

وقال : «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»(٢) .

---

(١) رواه أبو موسى . البخارى . كتاب الأدب .

(٢) رواه أبو هريرة . البخارى . كتاب الأدب . باب طيب الكلام .

الشـــــرح

يظن بعض النـاس أن الصدقة هى ما يخرجه الانسان من ماله لمن يستحقها من الفقراء والمساكين، و يعتقد أن الثواب قاصر على ذلك .

والواقع أن الصدقة كما تكون باعطاء الأموال تكون بالكلام الطيب النـافع ؛ وذلك لأن للكلام أثرا عظيما فى سرور النفس وانشراح الصـدر كما يحصل ذلك بالمـال . وكم من كلمـة جلبت نعمة، ومنعت نقمة، وأحيت نفسا .

وإذا آمرؤ أهدى اليك صنيعة * من جاهه فكأنها من ماله

والغرض : بيان أن الصـدقة لا تحصر فى المحسـوس فلا يختص بها إلا أهلُ اليسار، بل هى سهلة يسيرة، يسهُل على كل انسان أن يفعلها فى أكثر الأحوال بلا مشقة ولا عناء .

الحـــديث الثـامن

وقال : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ : فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ (١) » .

الشـــرح

يُسر : سهل — يُشاد : يغالب — فسـدّدوا . السداد : الصواب من القول والعمل — وقاربوا : اقتربوا — الْغَدوةُ : سير أوّل النهار — الرَّوْحَةُ : السير بعد الزوال — الدلجة : سير الليل .

اذا وصل المسافر ليـله بنهاره فى السفر ضعفت صحته ، وقلت همتـه ، وعجزت مطيته ، فلا تقدر على السير بعد ذلك ، وربما هلكت ، وتكون النتيجة أنه لا يصل الى مقصده بَلْهَ هلاك دابته .

الغلو فى الدين ضار

ومثلُ هذا المسافرِ المتعبـدُ : إن هو توسط فى عمـله نجح . وإنْ هو أفرط فيه عجـز . ولذلك يقول الرسـول الكريم :

(١) رواه أبو هريرة . كتاب الإيمان . باب الدين يسر . البخارى .

«إن الدين سهل : ولكن اذا أراد الانسان أن يبالغ ويَغْلُو لا بد أن يعجز» .

وإذًا : فيجب على المسلم أن يتبع طريق السداد والصواب وهو الوسط . فإن لم يتمكن من اتباع الطريق الأمثل اجتهد فى أن يكون قريبا منه . وليفرح بعمله ولو قلّ، ويعلم أنه ان خلصت فيه النية فهو مقبول مثابٌ عليه .

ويلزمه أن يستعين على تأدية واجباته بالاشتغال فترة والانقطاع فترة أخرى، فيتنفل مثلا فى أول النهار وفى وسطه ويتبع ذلك بشىء من الليل . ففى الحديث الشريف : « إنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » .

الغرض من الحديث

الغرض : أن يعطى الانسان ربه قسطا من وقته، ويعطى نفسه قسطا آخر .

الحديث التاسع

وقال : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ

رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (١) .

الشـــــرح

لكل انسان رعية يجب القيام بحقوقها

لكل إنسان رعيــة يجب عليه القيام بمصالحها ، فإن قام بهـا كما يجب نال الجزاء الأوفر ، وان قصّر عاقبه الله تعالى ، وطالبــه كل واحد من رعيته بحقه . فرعية الحاكم أهل بلاده يجب عليــه أن يمنع تعدّى بعضهم على بعض ، وأن يُرقّى شئونهم ويعدل بينهم . ورعيــة الرجل أسرته يلزمه الانفاق عليها وحسن معاشرتها وتربيتها تربيــة نافعة . ورعية المرأة : بيت زوجها يلزمها مساعدته وتدبير معيشــته وتربية أولاده وتعهُّد خدمه . ورعيــة الخادم : مال سيده يلزمه أن يخدُمه أحسن خدمة وأن يحافظ على ماله ولا يغُشه ولا يهمل فى عمله .

وكذلك المعــلم رعيته تلاميــذه يلزمه الإخلاص فى تعليمهم وتعويدهم الأخلاقَ الفاضلة ، وأن يكون قدوة لهم فيما يوصل الى

(١) رواه ابن عمر . البخارى . كتاب الجمعة .

الكمال — ، ورعية الانسان أعضاؤه يستعملها فيما يرضى الله تعالى ويحافظ على سلامتها .

الغرض من الحديث الشريف

والغرض : أن يقوم كل انسان بعمله خير قيام ؛ ليسعد وتسعد به الأمة السعادة التامة .

الحديث العاشر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»[1] .

الشرح

الألد : شديدُ التأبى عن الحق والتعصب لرأيه — الخصم : الشديدُ المنازعة .

المخاصمة بين الناس نوعان

المخاصمةُ بين الناس والمنازعةُ بينهم فى هذه الحياة سواء أكانت فى أمور دينية أم دنيوية . نوعان :

(١) رواه مسلم . باب الترهيب . كتاب بلوغ المرام لابن حجر .

(الأوّل) نوع مذموم ممقوت شرعا وعقلا . وهو الذى جاء فى هــذا الحديث الشريف . وهو أصناف كثيرة : منها المخاصمة بالباطل ، ومنهـا المخاصمة بالحق ، ولكن المخاصِم به لا يقتصر على قدر الحاجة فى إثبات حقه ، بل يظهر اللدَد والكذب لايذاء خصمه . ومنها المخاصمة لمحض العناد ولقهر خصمه و إيذائه وكسره وتشهيره . ومنها الخصام المخلوط بكلمات تؤذى ، وليس اليها ضرورة فى الوصول إلى الغرض .

(الثـانى) نوع غير مذموم ولا محرّم . وهو مخاصمة المظلوم لظالمه ، ولكن بشرط أن يكون قصْــده أن ينصر حجته نصرا يبيحه الدين و يأذن به الله تعالى ، وذلك إنمـا يكون إذا كان الخصام من غير لَدَد ولا إسراف فى القول . ولا زيادة على الحاجة فى إثبـات الحق ، ولا قصد عناد ولا إيذاء ولا نحو ذلك .

الحديث الحادى عشر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِن ممَّـا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » (١) .

(١) رواه البخارى - كتاب الأدب .

الشـــــرح

اشتمل هذا الحديث الشريف على جملة تعاليم نبوية :

(أحدها) أن دين الله عز وجل الذى أرسل به رسله الكرام دين واحد لا تَبَدُّل فيه ولا تفاوت فى جميع الأحكام التى جاءت فيه : كالعقائد المتعلقة بالله تعالى، وبالآخرة وأحوالها، وكالأخلاق وأصول العبادات وفضائل الأعمـال، غاية الأمر أن صور بعض العبادات وأشكالها كالصلاة مثلا ، وصور بعض المعاملات كالبيع ونحوه، قد يُبدلهـا الله سبحانه اذا اقتضى علمـه وحكمته ان ذلك التبديل أوفق للأمة ومكانها وزمانها وعاداتها .

(ثانيهـا) أنه صلى الله عليه وسـلم جعل عدم الاستحياء من فعل الشيء علامة على حسنه فى ذاته . فان كان الشيء حسنا لا يخجل المـرء أن يفعله جَهـرة أمام النـاس فانه يكون جائزا لا محذور فى فعله .

(ثالثهـا) وهو معـنى آخر، ان الانسان قد تمرَض نفسـه فينخلع عن فطرته الانسانية، وتُنزع من قلبه فضيلة الحياء وحينئذ

يرتكب ما يرتكب من أنواع الرذائل والخـازى، وهو ميت القلب لا شعور له ولا إحساس ؛ ولهـذا هدّده رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنذره وحذره بقوله (فاصنع ما شئت) . ومثل هـذا النوع من التعبير والتهديد قولك : ان لم يقتصد المسرف فى نفقاته فليبذر ما شاء . تريد تهديده وتخويفه عاقبة تبذيره ، وأنها ستكون وبالا عليه .

الحديث الثـانى عشر

وقال : «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [(1)] .

الشـــرح

عن عِرض أخيه . العِرض مايفتخر به من حسب وشرف —
بالغيب : أى فى غياب أخيه .

ذم الغيبة وثواب ردّها

جاء هـذا الحديث الشريف إرشادا للناس الى فضيلة من فضـائل النفس، ونهيا لهم عن تقـذيرها برذيلة ذميمة من الرذائل

(1) أخرجه الترمذى . باب الترغيب من بلوغ المرام لابن حجر .

وهى رذيلة الغيبة : وهى أن يذكر الانسان أخاه بشىء يكرهه ، ولو كان ذلك الشىء فيه فى الواقع : كأن يصفه بأنه قصير أو ردىء الخط ، أو راسب فى الامتحان . ونحو ذلك مما يتأذى منه ، فاذا كان مثل هذه الأوصاف محرما منهيا عنه فى دين الله تعالى ، فما ظنك بغيره من الأوصاف الشديدة الإيلام ؟

الأضرار المترتبة على الغيبة

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة . لأن فيها أضرارا عديدة شديدة فلطالما عادت بمعاداة الناس بعضهم لبعض ، وفككت ما بينهم من عُرا الدين والصداقة الوثيقة . بل طالما قطعت ما كانوا مرتبطين به من صِلات القرابات والأرحام التى أمر الله تعالى بها أن توصل . وأنت بعد هذا لست فى حاجة الى أن نقص عليك تفصيل طرف من الحوادث السيئة التى نتجت من ارتكاب هذه النقيصة المخربة : نقيصةِ الغيبة . وقانا الله تعالى شرها .

تحريم غيبة غير المسلم

اذا عرفت ما يترتب على الغيبة . من هذه النتائج السيئة الذميمة . وتذكرت أن غير المسلمين الذين يكون بيننا و بينهم

معاهدةُ سـلام، وعقدُ أمان، يجب لهم علينا أن نساويَهم بنـا : فيكون لهم ما لنـا ، وعليهـم ما علينا . اذا كان ذلك كما سمعت ؛ فانه يحرم اغتيابهم ووصفهم بما يكرهون فى أى شأن من شؤونهم ؛ لأننا قد عاهدناهم على سـلامتهم من الأذى ، ومعاملتهم بمحـاسن الدين الاسلامى الحنيف . والله تعالى يقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ . وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا . وَقَـدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »[1] .

سـبب التقييد بالاخوة

ومن هـذا يتضح لك أن التقييد بأخوة الاسلام فى الحديث الشريف ، انمـا هو لكون ذكر النبى صلى الله عليه وسلم لأحكام الاسلام موجها الى المسلمين الذين يخاطبهم صلى الله عليه وسـلم عادة وقت التعليم .

ثواب من ردّ الغيبة عن أخيه الغائب

ثم انه عليه الصلاة والسلام . أخبرنا بهذه المكافأة العظمى . التى تفضل الله الكريم بها على عبـده الذى ردّ عن أخيه الغـائب غيبته . فبين أن الله تعـالى يحفظ له أعظم جزء فى جسمه وأشرفه

(١) ٩١ — ١٦ النحل .

وهو وجهه . لأنه مجمع محاسن الانسان وكمالاته . فيرد عنه النار التى أعدّها يوم القيامة للمغتابين مكافأة لهم على ما اقترفوه من الغيبة القبيحة . كما قال : « تَلْفَحُ(١) وُجُوهَهُمُ النَّارُ، وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(٢) »(٣) .

الحديث الثالث عشر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ(٤) » .

الشـــرح

طوبى : اسم تفضيل مؤنث أطيب أى مكافأة فضلى .

العيوب كما تصيب الأبدان تصيب النفوس

كما أنك لا تجد انسانا قد سلمت بنيته من العيوب، كذلك لا تجد أحدا قد سلمت نفسه منها : وحينئذ يكون الناس جميعا قد تكافئوا فى الاصابة بها ؛ ولم ينج أحد من الوقوع فى قبضتها .

---

(١) تحرقها . (٢) الكلوح تقلص الشفتين وانكماشهما عن الأسنان من إحراق النار . (٣) ١٠٤ — ٢٣ سورة المؤمنين .

(٤) أخرجه البزار . باب الترهيب من بلوغ المرام .

خطأ من يهمل نفسه ويشتغل بغيره

فاذا كان لا يحسن بمن أصيبت يده أو معدته أن يشغل نفسه باصابة غيره فى يده أو معدته مثلا، ويترك معالجة جسمه مما أصيب به : كذلك لا يحسن بمن ابتليت نفسه بعيب من العيوب النفسية أن يغفل عنها ويهملها من المعالجة والمداواة . ثم يشتغل بما أصيبت به نفس غيره من العيوب أيا كانت .

آبدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا آنتهت عنه فأنتِ حكيم

أغراض من يشتغل بعيوب غيره

ان من يشغل نفسه بعيوب غيره لا يخلو من ثلاثة أغراض : فاما أن يكون غرضه الشماتة والمجاهرة بسروره بذلك ، وإما أن يقصد تشهيره وفضيحته بين الناس ، وإما أن يدعى إظهار التحزن والتحسر لما ابتلى به .

ومن البداهة أنه لا شيء من هذه الأمور الثلاثة يصلح أن يكون عذرا أو مبررا يسوّغ له إهمال عيوب نفسه ، واشتغاله بما لا يعنيه ولا يفيده من عيوب الناس . فرحم الله امرأ أقبل على نفسه فداوى أمراضها . وأصلح فاسدها . فكافأه ربه المكافأة الحسنى . وجزاه الجزاء الأوفى .

الحديث الرابع عشر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ وَلَا بَخِيلٌ . وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ (١) » .

الشـــــرح

خَبٌّ : خدّاع — سيئ الملكة يسىء معاملة المملوك له .

غير المؤمن محروم من دخول الجنة أصلا

من المعلوم شرعا أن الذى يُحْرَم على التأبيد من دخول الجنة فى الآخرة انما هو غير المؤمن . أما المؤمن العاصى فإن لم يغفر له الله تعالى فإنه يدخله النار أولا ، مدّة يحكم بها الله الحَكَم العدل ، ثم يتفضل عليه بعد انقضائها ، فيدخله الجنة دار النعيم .

المؤمن لا يحرم من الجنة دائما

فأما العُصاة فهم طوائف كثيرة . ذكر منها فى هذا الحديث الشريف ثلاثة أصناف :

الصنف الأوّل — الخَب ، وهو الخداع الذى يسعى بين الناس بالفساد . فيفرّق بين المرء وزوجه . و بين الوالد وولده . و بين

---

(١) أخرجه الترمذى . باب الترهيب من بلوغ المرام .

الصديق وصديقه . لايخشى لله عقابا . ولا للحكومة حسابا . ولا للناس لوما ولا عتابا . فكان جديرا بأن يُحشر فى زمرة من يقول الله العدل لهم يوم القيامة : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا »(١) .

الصنف الثانى — البخيل : وهو الشره على المـال الحريص عليه ، يُبذّر فى عمره ، ويُسرف فى انفاق حياته ؛ ليجمع المـال من هنـا وهناك ، ثمّ يكنزه ويسـجُنه سجنا مؤبدا لافكاك له : فيحرِم نفسه وغيره من الانتفاع به ويُعطّل حكمة الله العلى الحكيم الذى أحسن الى الناس بالأموال ، وجعَلها قياما لهم وعمادا لحياتهم ورفاهيتهم .

إنك اذا تدبرت فى أمر هـذا البخيل . وجدت أنه لم يحرم نفسه من التمتع فى الدنيا فقط ، بل أنه حرمها كذلك من النجاة من عذاب الآخرة : «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ»(٢) . وما له من الله من واقٍ .

الصنف الثالث — هم الذين يسـيئون معاملة الملوك لهم ولا يحسنون صنيعهم به ، ولا صحبتهم له .

---

(١) ٣٠ — ٧٨ سورة النبأ .   (٢) ٣٤ — ١٣ سورة الرعد .

الملوك صنفان

ثم ان هذا المملوك صنفان : انسان[1] وغير انسان .

اساءة معاملة الانسان المملوك

فالاساءة فى معاملة الانسان المملوك تكون بترك المالك أو اهماله فى تأديب مملوكه بالآداب الفاضلة الشرعيــة : من تعلـيم العقائد الدينية الصحيحة ، وتعليم الفرائض الاسلامية وأعمال الطاعات ، وسائر ما يجب على المـالك للمملوكين : من إطعامهم وكســوتهم على الحالة المعروفة المعهودة بالنســبة اليه واليهم . وكذلك تكون الاساءة بتجاوزه الحدّ الجائز فى معاقبتهم وتربيتهم ، وبتكليفهم من الأعمال ما لا يطيقون القيام به .

اساءة معاملة المملوك غير الانسان

وأما الاساءة فى معاملة المملوك غير الانسان فانهـا تكون بالتفريط فى تغذيتــه ووقايتــه ، وبتحميله من الأحمال والأعمال ما لا يطيقه ، وبعــدم الشفقة عليه بالســير الطويل أو العنيف ، وبالضرب الشديد ، وبغير ذلك مما يكرهه الدين الاسلامى الحنيف وتألم له القلوب الانسانية الرحيمة .

فأقلعوا أيها المخادعون عن خداعكم فانما أنتم تخادعون أنفسكم . ويأيهـا البخلاء لا تجعلوا أيديكم مغلولة الى أعناقكم ، وأنفقوا ممـا

(١) الحديث يشمل الانسان المملوك لأن الرق كان مباحا فى الحروب الدينية .

جعلكم الله مستخلَفين فيــه . ويأيهـا المسـيئون الى مَن تملكون أحسنوا الى من ملكتم . وارحموا من لستم له برازقين : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(١) .

الحديث الخامس عشر

جَاءَ رَجُلٌ الى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ أُمُّكَ . قَالَ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ(٢) .

الشـــــرح

ينبغى أن يبرّ الولد أمــه وأباه، وأن يجاملهما أحسن مجاملة، ويعاملهما أرق معاملة ، فيطيع أوامرهمـا ، ويجتنب نواهيهما، ويخاطبهما باللـين ، ويرشـدهما بالرفق ، ويعطيهما اذا طلبـا ، ويساعدهما اذا احتاجا، فقــد تعبا ليســتريح، وسهرا لينام، وكدّا لينفقا عليه .

---

(١) ٣١ — ٢٤ . النور . (٢) الحديث : من كتاب الأدب . البخارى . باب من أحق الناس بحسن الصحبة .

ويلزمه أن يختص الأم بمزيد العناية، وشديد الرعاية، وتمام الرفق ، وحسن المعونة ، فقد تعبت فى حمله ، وكابدت المشاق فى وضعه، ولاقت المصاعب فى إرضاعه ، ثم اشتركت مع أبيه فى تربيته وتنميته، وتقويمه وتهذيبه .

ولهذا كرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصية بها .

وهناك سبب آخر : هو أن الولد يخاف عادة من أبيه ، فيحترز من مخالفته، فلا ينقض له طلبا ، ولا يعصى له أمرا . أما الأم فان شدّة شفقتها ، وعظيم رحمتها ، قد تدعو الولد الصغير، الى أن تبدُر منه بادرة، أو تصدُر منه نادرة .

الغرض : الحث على حسن معاملة الوالدين ، وعلى مقابلة المحسن بالاحسان .

الحديث السادس عشر

وقال رسول اللهِ صلى الله عليهِ وسلم : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ . السَّبَّابَةِ والْوُسْطَى » (١) .

(١) الحديث : من كتاب الأدب - البخارى - باب فضل من يعول يتيما .

الشـــــرح

وجوب العناية باليتيم

اليتيم هو الذى مات والده وهو صـغير، فلم يجد من يكفُله ، ويقوم بالانفاق عليه، ويُعنَى بتثقيفه وتقويمه، وتأديبه وتهذيبه ، فيشب ضعيفَ الجسم، خامد العقل، فاســد الخلق، عاطلا من العمل : يسعى فى الحصول على عيشه من الطرق الدنيئة، والسبُل الحقيرة، فيكون عضوا أشلَّ فى المجتمع الانسانى، ضرره أكبر من نفعه ؛ ولهذا وجب على المسلمين أن يُعْنَوْا بتربية اليتامى، وتقويم أَوَدهم، و إصلاح نفوسهم، وتثقيف عقولهم،ليكونوا أفرادا نافعين أنفسَهم وأمتهم .

وقد رَغَّب الرسول الكريم فى ذلك ، فقــد بَيَّن أن كافل اليتيم سيكون فى الجنة مُقَرَّبا منه، مُحَبَّبا لديه .

الغـــرض : الحث على مساعدة اليتامى ، وإنشاء الملاجئ والمدارس والمستشفيات لهم .

---

(١) الحديث . من كتاب الجنائز . فتح البارى . باب ليس منا من شق الجيوب .

الحديث السابع عشر

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » .

الشـــرح

الجيب ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس (القَبة) .

من النـاس مَن اذا أصابته مصيبة قابلها بالصبر، ومنهم من اذا نابتـه نائبة اسـتولى عليـه الجزع ، وتغلّب عليه الهَلَع[1] ، فوقع فيما لا تحمد عقباه .

وقد أثنى الله على أهل الصبر فقال : «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» وتبرّأ الرسول الكريم ممن لم يتحل بالصبر عند الأزَمات فقد قال ما معناه. ليس على سنتنا وطريقتنا من يضرب أى عضو من أعضائه حينما تحل به كارثة، أو تنزل به نازلة، أو يشق ثيابه، أو ينادى بالويل والثبور، أو يقول ما يقوله أهل الجـاهلية الأولى ، واجملاه ،

(١) شدّة الجزع .

وامصيبتاه ، لما فى ذلك كله من عدم الرضا بقضاء الله وقدره ، وعدم الاطمئنان اليه، والاستسلام له .

الغرض : الصبر عند المصائب، والابتعاد عن عمل ما لا يليق .

الحديث الثامن عشر

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ اِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (١) .

الشـــــرح

التراحم : أن يشفق الناس بعضهم على بعض . التوادّ : التواصل الجالب للمحبة كالتهادى والتزاور . التعاطف : اعانة بعض الناس بعضا . تداعى : دعا بعضه بعضا الى المشاركة فى الألم .

ينبغى أن يرحم المؤمن أخاه المؤمن، ويشفق عليه، فيؤاسيه فى الضراء ، ويشاركه فى السراء ، ويزوره فى داره ، ويعوده فى مرضه، ويتقرّب اليه بما تيسر من الهدايا والتُّحف، ويتعهده بما يحتاج اليه، ويدفع عنه الأذى ، ويحول بينه وبين الشر،

(١) الحديث : من كتاب الأدب . البخارى . باب رحمة الناس والبهائم .

ويجب أن يشعر كل مؤمن بالألم الذى يحُل بأخيه المؤمن، ويسعى فى دفعه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

فانه لا يتم إيمان المؤمنين إلا اذا كانوا معا كالجسد ، اذا مرض عضو منه اشترك معه باقى الأعضاء فى الألم، فالعين تسهر، والجسم يُحَم، والمعدة تضطرب، والفكر يرتبك .

الغرض : أن يساعد المؤمن أخاه، ويتحبب اليه، ويألم لألمه، ويفرح لفرحه .

الحديث التاسع عشر

وقال رسول اللهِ صلى الله عليهِ وسلم : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »(١) .

الشـــــرح

جارك شريكك فى الخير والشر : يواسيك اذا احتجت ، ويُغيثك اذا استغثت ،ويمونك اذا افتقرت ،ويعودك اذا مرضت، ويسأل عنك اذا غِبت .

(١) الحديث : من كتاب الأدب . البخارى . باب الوصاة بالجار .

فينبغى أن تكرم جِواره، وتحسن معاملته : فتَبَشّ فى وجهه عند اللقاء، وتتفقده اذا غاب، وتعوده اذا مرض، وترشده اذا ضلّ ، وتُقرضه اذا اضطُرّ، وتنشر محاسنه، وتستر مقابحه .

وقد أوصى الرسـول الكريم بالجار، فقال : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ» وقال : ان جبريل الأمين أكثر من الوصية بالجار حتى ظننت أنه سيُنزله منزلة الأقارب فيفرض له فى التركة كما فرض لهم .

الحديث العشرون

قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : «انْظُرُوا الَى مَنْ هُوَ أَسْـفَلُ مِنْكُمْ . وَلَا تَنْظُـرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ . فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ[1]» .

الشــــــرح

حكمة هذا التعليم النبوى

هذا تعليم من تعاليم النبوّة المحمدية . وتطبيب ناجع من طب الإسلام الحنيف . عالج به النفوس لتنتبه الى نعم الله تعالى عليهـا وتقدُرها حق قدرها . وتؤدّى ما وجب عليهـا لله من شـكرها .

(١) رواه البخارى . باب الأدب من بلوغ المرام للحافظ بن حجر .

ليحفظ لها تلك النعم . ثم يتفضل عليها بزيادتها وتكثيرها كما وعد بذلك فى قوله سبحانه : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] .

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننظر الى من هو أسفلُ منا فى أمور هذه الحياة الدنيوية وشؤونها . ونهانا أن ننظر الى من هو فوقنا فيها .

أرشدنا الى أن ننظر الى المبتلى بالأسقام ثم ننتقل منه الى ما تفضل الله تعالى به علينا من العافية التى هى أصل كل إنعام . كذلك ننظر الى من فى خلقته نقص كعمى أو صمم أو بكم ، ثم ننتقل الى ما نحن فيه من السلامة من تلك العاهات التى تجلب الغم والهم . وكذلك ننظر الى من ابتلى بالفقر المدقع أو بالدَّين المذلّ لأعناق الرجال ، ثم نلتفت الى نجاتنا منهما .

على أنه ما من مبتلًى بشىء مّا فى هذه الحياة إلا وهناك من هو أعظم منه بلاء وعناء . فإذا نظر اليه كان له فيه سلوةٌ وعظةٌ . ووجب عليه أن يسارع الى شكر الله تعالى على ما أنعم به عليه وتفضل .

وجوب النظر الى من هو أرقى فى الخير

أما من كان فوقه فى الدين والعلم الصحيح والفضل وعمل الصالحات فان النظر اليه مطلوب ومحبوب ؛ لأنه يعلم به أنه من المفَرّطين إذ لولا تفريطُه لكان مثلَه أو أعظمَ منه .

(١) ٧ — ١٤ ابراهيم

وصفوة هذه الحكمة النبوية البالغة أَنّ النظر الى من هو دونه فى الأحوال الدنيــوية يجلُب له السرور والاغتباطَ بمــا هو فيه ، ويوقظُه لشكر الله على نعمه التى أسبغها عليــه ، وأَنّ النظر الى من هو أعلى منه فى الخير والطاعات يحمله على الحياء من الله عز وجل ، وينهض به الى المسارعة والمبادرة فى عمل الصالحات وفنون البر على اختلافها وتنوّعها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



وكان تمــام طبع الجزء الأوّل من كتاب الدين الاسلامى بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٦ جمــادى الأولى سنة ١٣٥١ (٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٢) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١١٢٢/١٩٣٢/١٩٠٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
04322224